
د. أحمد خالد توفيق
روايات مصرية للجيب
37
سافاري
Looloo
www.dvd4arab.com
رَجُلُ الرمال

مقدمة

اسمى (علاء عبد العظيم) .. طبيب مصرى شاب يجاهد ـ كما يقول الغلاف ـ كى يبقى حيًا ويبقى طبيبًا ..

وحدة (سافارى) هى البطل الحقيقى لهذه القصص ، و(سافارى) مصطلح غربى معناه (صيد الوحوش فى أدغال أفريقيا) وهو محرف عن لفظة (سفرية) العربية ..

لاحظت أن أكثر الأصدقاء يضيفون حرف ألف بين الراء والياء لتتحول الكلمة إلى (سافاراى) .. لا أعرف فى الحقيقة سبب هذا الخطأ ، لكنه خطأ شائع شبيه بتلك الألف الشيطانية التى يكتبها الجميع بعد (واو) ليست (واو جماعة) على غرار (أرجوا الهدوء) . ولو كنت ترغب فى معرفة النطق الغربى للفظة (سافارى) فلتتخيل أنها (صفرى) بفتح الصاد والفاء ..

وحدة (سافارى) التى نتكلم عنها هنا لا تصطاد الوحوش ولكنها تصطاد المرض فى القارة السوداء ، وسط اضطرابات سياسية لا تنتهى وأهال متشككين وبيئة لا ترحم ..

الوحدة دولية لكن بطلكم الفقير المعترف بالعجز والتقصير شاب مصرى عادى جدًا ، فقط وجد كثيرًا من عوامل الطرد فى وطنه فانطلق يبحث عن فرصة فى القارة السوداء .. انطلق يبحث عن ذاته ..

هناك وجد التقدير .. وجد المغامرة .. وجد الحب .. الطبيبة الكندية الرقيقة (برنادت جونز) التى صارت زوجته .. ثم هناك الفيروسات القاتلة والقبائل المعادية والمرتزقة الذين لا يمزحون ، والعلماء المخابيل وسارقى الأعضاء ..

هناك كما قلنا من العسير أن تجمع بين شيئين : أن تظل حيًا وتظل طبيبًا .. لكنك تحاول .. فى كل يوم تحاول ..

هذه المحاولات هى ما أجمعه لكم وأقصه لكم فى شكل قصص .. وقصصى هى خليط عجيب من الطب والميتافيزيقا والرعب والعواطف والسياسة ! لا أعرف إن كان هناك مجنون آخر قد جرب أن يصب هذا الخليط فى كئوس ويقدمها لكم ، لكنى لم ألق هذا المجنون بعد إلا فى مرآتى ..

تعالوا نبدأ وسنفهم كل شىء ..

★ ★ ★

1ـ الضـائعون ..

وأنا الذى لا أطيق الحر !

طيلة حياتى أشعر أن هناك نارًا داخليـة تشتعل فـى أعمـاقى .. هذه النار هى التى تمنحنى طبعى الثائر ضيق الصدر ، وهـى التـى تجعلنى أرتدى ثيابًـا خفيفـة فـى أغلب أوقـات العـام ، وهـى التـى تجعل الجميع فى خير حـال بينمـا أجفف أنـا عرقـى وأفتح أزرار قميصى .. وفى بعض الليالى يتدثر الجميع بأغطيتهم بينمـا أزيـح أنا الغطاء لا شعوريًا وأعب الهواء فى جرعات عملاقة ..

أنا الذى لا أطيق الحر عرفت أننى سأكون أول الهالكين ..

قد جئت من بلد دفيئة نسبيًا لكنـى أكثر الموجودين هنـا ضيقًا بما نحن فيه ..

★ ★ ★

لو كانت هناك مزية لمغامرتى الدائمة تلك مع وحدة (سافارى) ، فهى إننى رأيت فيها ما لم أره من قبل ، وما كنت أحسبنى لن أراه أبدًا ..

فى أيام الدراسة حاولت مرارًا نطق اسم صحراء (كالاهـارى) ، وكان تذكر الاسم عسيرًا حتى إننـى كتبتـه علـى بـاب حجرتـى .. هنـاك

جوار ذلك القلب الذى يخترقه السهم ، وكلمات أغنية فرنسية أحبها .. كتبت هذا الاسم حتى جاء أخى ليشطبه بقلمه الجاف الغليظ ..

أنا الآن فـى صحـراء (كالاهـارى) ! لقد أوشكت علـى تسلق (كليمنجارو) وقابلت الزولـو والماسـاى والكيكويـو .. لكنـى الآن فى صحراء كالاهارى .. بل أوشك على أن أموت فيها !

جـوارى يمشى الطبيب الروسى (فاسيلى سيمياكوف) زميلـى فى الوحدة ، والذى أصبحـت أدين لـه بـالكثير .. وخلفنـا الطبيبـة الإيطاليـة (سيمونيتا ألبرتينى) خطيبتـه .. هـذان همـا صديقـاى الأساسيان هنا .. وبما أننا جميعًا من بلدان قليلة الخبرة بالصحراء ، فإننى كنت أشعر بشكل ما أن نهايتنا مؤكدة ..

لا أصدق أننى سأموت وسوف تجفف الصحـراء عظامى بينمـا تتسلى النسور باقتلاع عينى ، ولكن لا أحد يصدق أنه سيموت علـى كل حال .. برغم هذا نحن نموت منذ بدء الخليقة وإلى الأبد ..

كنا نمشى .. ما زلنا بلياقتنا ولم نفقد الكثير من الماء ..

أعرف أن المرء فـى الصحـراء يفقد ثلاثـة لترات ونصفًـا فـى ساعتين .. معنى هذا أن الظمأ سيمزقنا عما قريب .. بعدها نشرب مـا فى زجاجتى الماء .. وبعدها ؟

ثم الاتجاهات اللعينة ! إلى أين نتجه ؟

الصبار البرميلى يمتاز بعادة غريبة هى أنه يتجه دومًا إلى الجنوب .. لهذا يطلقون عليه (صبار البوصلة) وقد استطاع أن يهدى كثيرين فى الصحراء .. لكن من قال إنه موجود هنا ؟

هذه صحراء (كالاهارى) يا صاحبى ..

أكثر صحارى الأرض جفافًا وأصغرها سنًا ..

الصحراء التى تزداد رقعتها فى كل لحظة ، والتى يصعب تصديق أنها كانت أرضًا خصبة منذ زمن قريب ..

من الناحية الجغرافية ، يمكن القول إننا فى جنوب أفريقيا لكننا على حدود (بتسوانا) .. صحراء (كالاهارى) تغطى رقعة لا بأس بها تشمل ثلاث دول ، لكن معظم مساحتها موجود فى (بتسوانا) ..

أرى الكثبان الرملية من بعيد .. وأرى الرمال الحمراء المميزة لهذه الصحراء فى فصل الصيف .. الصيف الذى يبدأ فى أكتوبر من كل عام ..

قفر .. خواء .. فراغ ..

لهذا تسمى الصحراء فى الإنجليزية **Desert** .. هذا مشتق من معنى الهجر والبعد ..

توقف (فاسيلى) وجفف عرقه ثم قال :

ـ « لا جدوى من الاستمرار فى هذا الاتجاه .. أرى أن نعود .. »

قلت له فى سخرية :

ـ « جميل .. أنا موافق .. لكن هل تعرف كيف تعود بنا ؟ »

نظر إلى الخلف وهز رأسه .. ربما بدا الأمر سهلاً .. لكنك لا تستطيع أبدًا أن تعرف إن كنت مشيت فى خط مستقيم أم لا ..

ربما مشينا فى منحنى لا شعورى ، وهذا يعنى أن العودة للخلف سوف تقودنا إلى مكان جديد ..

قالت (سيمونيتا) وقد تورَّد وجهها من الحر فجعلها فاتنة :

ـ « لابد أننا ملاقون بعض (البوشمن) .. »

ـ « هذا ممكن فقط لو كان عددهم بالكثافة الكافية .. لو كان هناك واحد منهم فى كل كيلومتر مربع .. »

الحق إنه لمأزق !

لقد مررت بمآزق كثيرة .. كل حياتى سلسلة من المآزق ، وقد نجوت منها جميعًا بشكل ما .. لكن هناك دائمًا مأزقًا أخيرًا ! مأزقًا ينهى انتصاراتك .. فهل هذا هو المأزق الأخير فعلاً ؟

شىء فى أعماقى قال : لا .. لم يحن وقتك بعد .. سوف تنجو ..

هناك ورقة واحدة فى يدنا هى (فولفى) .. لو ظهر لانتهت مشاكلنا ..

لكن أين هو ؟

* * *

كان الجو يتحسن ولا شك فى هذا ..

الطقس يزداد برودة .. لقد راحت الشمس تنحدر نحو الأفق فى أجمل منظر غروب رأيته فى حياتى .. منظر لا يمكن وصفه أو الكلام عنه ، ولنٍ يقدر كل فنانى الأرض على التعبير عنه .. لو كان مزاجى رائقًا لبكيت تأثرًا ..

نظرت لساعتى .. إنها التاسعة مساء .. من حسن حظنا أننا بدأنا هذه التجربة فى ساعة متأخرة .. سوف يساعدنا الليل على البقاء أحياء وعلى ادخار الماء ..

لكن .. عندما اسودت السماء تمامًا ورصعتها النجوم .. النجوم البكر كما خلقها الله .. زحام مرعب من النجوم يجعلك تتساءل عن المعجزة التى تطير بها الطائرات من دون أن تصطدم بنجمة أو اثنتين .. زحام لم تتصور قط أنه كان هناك طيلة الوقت وأنت لا تراه ..

عندما حدث ذلك .. وعندما نظرنا إلى الكثبان وأحواض الملح التى صارت سوداء ، كأنها عمالقة رابضة على بطونها بانتظار لحظة الفتك بنا .. شعرنا برجفة عنيفة .. يمكن لأى شىء أن يهاجمنا ونحن مكفوفون عاجزون عن الرؤية تمامًا ..

هل هذه القشعريرة بسبب البرد أم بسبب الرهبة ؟

فى صمت ووجل بدأت (سيمونيتا) تهشم قطعة من البسكويت وتناول كلاً منا كسرةً .. هذا هو العشاء ! وهو عشاء يسهل الاستغناء عنه لأنه سيجعل معدتك تتوقع معاملة حسنة لن تحدث أبدًا ..

ثم إننى قمت بصب قطرات من الماء فى كوب بلاستيكى وقدمته لها .. بعدها يشرب (فاسيلى) ثم أنا .. أنا بحاجة إلى خمسة لترات من الماء لأستعيد ما فقدت ، لكن هذا مجرد حلم ..

من المفترض أن يجد المرء كهفًا أو شجرة ليغفو عندها .. هذا هو ما يحدث منذ بدء الخليقة ، لكننا لا نملك مكانًا ننام فيه سوى هذا .. وسط الرمال .. كأنك تنام فى وسط الشارع ..

هكذا جلسنا متلاصقى الظهور ، وكل منا ينظر فى اتجاه منعًا للمفاجآت ..

ربما يجوب الموت هذه الصحارى الآن حاملاً عصاه مدثرًا بعباءته السوداء .. لن يبحث عنا كثيرًا .. الموت لا يضل الطريق أبدًا .. إنه أفضل من أى كشاف أثر لدى أية قبيلة هنا .. ربما نراه وهو آت بين الكثبان الرملية .. ربما لا ..

سوف يمر الموت بنا .. يدور حولنا ليتفقد وجوهنا النائمة قبل أن يقرر أى واحد يختار ..

سوف ..

لكنى أراه فعلاً !

لا مزاح هنا !! إننى أراه يعبر تلك الرقعة على بعد خمسين مترًا منى .. حيث لا يوجد ضوء إلا ضوء النجوم ..

أراه يمشى الهوينى ووجهه .. لا أرى وجهه لكنه ينظر لنا فى ثبات !

وصرخت أنادى (فاسيلى) ..

ودعوت الله ألا يرى شيئًا وأن يتهمنى بالخرف والجنون ..

لكنه رأى الشخص ذاته ! رأى الشىء ذاته !

لم يكن هذا هو الموت ..

كان ما هو أكثر شناعة ورعبًا !

* * *

2 ـ مارثـــا ..

قالت لى (مارثا) :

ـ « راقب ما أقوم به جيدًا .. ولا تتكلم .. »

لم أكن أنوى الكلام على كل حال .. لقد أصابنى خرس الأسماك ، وإن ضايقنى هذا الشعور الممض بأن هناك ما يزحف على مؤخرة عنقى .. مددت يدى أكثر من مرة أتحسس هناك .. لابد أنه نوع من الفوبيا له اسم لاتينى مخيف ، ينتهى بلفظة (فوبيا) .. لابد أنه نوع من الهستيريا .. فأنا أعلم كما تعلم أنت أنه لا يمكن أن يصل العقرب إلى هناك ..

لم أر عقارب كثيرة فى حياتى ، ولكنى أذكر ما حكاه لى أبى عندما كان مجندًا فى السودان ، وكيف لم يجد تلك العقرب الوقح مكانًا أفضل يقيم فيه إلا براد الشاى !

الفكرة ذاتها كانت تجمد الدم فى عروقى ..

والآن يمرح هذا العقرب على المنضدة .. أمامى وعلى بعد متر واحد منى .. وقد وقفت أمامه (مارثا) ممسكة بصندوق غريب الشكل .. يمكن أن يذكرك بعلبة ثقاب كبيرة .. علبة مفتوحة مقلوبة توجهها نحوه .. يبدو أن الشيطان شعر بذلك لأنه اتخذ وضعًا هجوميًا

مرعبًا .. يواجه الفتاة ، وقد ثنى ذيله للأمام حتى صار زبانه فوق رأسه تمامًا ..

هنا أسقطت العلبة عليه وأغلقت الدرج .. هكذا صار حبيسًا تمامًا ..

لم ينته المرح بعد .. لقد خرج الزبان من ثقب فى قاع العلبة وراح يرتجف فى جشع .. هنا مدت (مارثا) إصبعين فى خفة وأمسكت بالزبان ، ثم استأصلته بمبضع صغير فى يدها ..

كنت أنا شاحبًا كالورقة أو هذا ما أعتقده ، بينما التفتت لى وابتسمت فى انتصار :

ـ « هكذا ! »

ووضعت الزبان فى أنبوب زجاجى صغير به محلول ملحى رائق ..

قالت لى وهى تعود لمقعدها :

ـ « هل تريد أن تجرب مع عقرب آخر ؟ »

نظرت لها وقلت فى لا مبالاة إننى لا أجد الأمر مسليًا ..

فى بعض الليالى يقابل الرحالة مائة وخمسين عقربًا فى ليلة واحدة !

قالت لى :

ـ « حاليًا لم يعد استئصال الزبان ضروريًا .. أحيانًا نكتفى بحلب العقرب وهذا يبقيه حيًا .. أما هذا البائس فقد مات أو هو موشك على ذلك .. »

رأت توترى كما هو واضح ، فقالت :

ـ « عندما تعمل فى مركز طبى قرب (جالاجادى) يجب عليك أن تعتاد هذه الأمور .. »

قالت لى أشياء كثيرة ..

حكت لى أن هذا العقرب يبلغ طوله أحيانًا 15 سم .. هذا شىء مرعب بالنسبة لعقرب لو فكرت فى الأمر .. وهى قادرة ـ هذه العقارب ـ بسهولة تامة على أن تلدغ ساقك فوق مستوى الحذاء ، لهذا يصير الحذاء ذو العنق ضرورة للبقاء حيًا هنا ..

ـ « هناك نوعان من العقارب .. نوع سام كهذا والنوع الآخر ذو الذيل الرفيع غير سام .. أنا لم ألق النوع الثانى فى حياتى قط !! »

أما النصيحة الأهم والتى أسمعها فى كل مكان تقريبًا هى أن عليك أن تنفض حذاءك قبل أن تنتعله ! هذا شىء يستحيل أن تتذكره ، وفى كل مرة ألبس فيها الحذاء أدعو الله ألا تكون هذه هى المرة .. نفس الشىء سمعته عن أفاع كثيرة جدًا .. أرى فى السينما رعاة البقر يقلبون حذاءهم قبل ارتدائه ، لكن من الصعب أن تعتاد هذه العادة ..

★ ★ ★

لم تكن العقارب جزءًا من اهتمامات (مارثا) .. كانت هى كل اهتمامات (مارثا) فى المركز الطبى الذى تعمل فيه فى الشمال .. مهمتها أن تحلب العقارب أو تستخلص سمها .. من هذا السم تقوم المختبرات بعمل الترياق اللازم ..

الحق إنها كانت كائنًا رائعًا .. أتكلم عن (مارثا) لا العقارب طبعًا .. وحتى هذه اللحظة لا أعرف إن كانت طبيبة أم فنية أم ممرضة .. لقد جاءت إلى وحدة (سافارى) لبعض الوقت ، وكانت تعتزم أن تعلمنا بعض أساليب التعامل مع العقارب قبل أن تعود إلى مكانها الغامض فى الشمال ..

كانت فتاة من (الأفريكانز) .. أى إنها نصف أفريقية نصف هولندية .. سمراء فارعة الطول لها عينان ساحرتان وطريقة جادة عملية طريفة ، ولها أنامل طويلة رفيعة واضح أنها خلقت لالتقاط العقارب فعلاً .. وأعتقد أنها ألقت حجارة كثيرة فى ماء الوحدة الخامل الممل .. أعتقد أنها فى الثلاثين من عمرها أو نحو ذلك ..

يقولون إنها قضت أكثر حياتها فى منطقة تدعى (وتدراى Witdraai) .. لا أعرف أين هى بالضبط ، لكنها بالتأكيد تقع فى بتسوانا التى هى جارة جنوب أفريقيا من الشمال .. تقول إنها كانت محطة لتربية الجمال فيما مضى ..

لا أعرف الكثير عن العقارب سوى أنها تلدغ وتقتل .. صحيح أن هذه المعرفة جزء مهم من طب المناطق الحارة ، لكنى أعترف لم ألق حالات كثيرة فى حياتى .. ربما كانت خبرتى بالثعابين أكثر ..

من الغريب أن تقابل إنسانًا كرَّس حياته من أجل هذه الكائنات البشعة ، لكن (مارثا) لحسن الحظ لم تتحول إلى عقرب .. لقد رأيت علماء حشرات يتحولون إلى صراصير عملاقة ، وعرفت هاويات قطط تحولن إلى قطط آدمية .. مروض الأسود فى السيرك .. بم يذكرك بوقفته وتحفزه وصدره العريض وصوته العالى ؟!!!!

لكن (مارثا) كانت مخلوقة رقيقة ساحرة ، وأعتقد أن كل واحد فى (سافارى) كان ينتظر فى قلق لحظة رحيلها .. لا شك أننا سنفقد شخصًا عزيزًا فى تلك اللحظة ..

كانت تحكى لنا قصصًا عجيبة هناك حيث كنا نلتقى فى كافتيريا الوحدة .. تجلس وحدها وسط المجموعة وتحكى عن (جالاجادى Kgalagadi) التى هى الاسم الأصلى لـ (كالاهارى) وحياتها الغريبة وعن (أوكافنجو Okavango) النهر الوحيد هناك ، والذى يحيط به فردوس أرضى من الحياة البرية والنباتات ..

ـ « من لم ير (أوكافنجو) لم ير أفريقيا .. ومن لم ير أفريقيا لم ير العالم .. »

هكذا وجدت أننى من سعداء الحظ الذين لم يروا العالم بعد برغم كل ما رأيت .. كنت أرى برنامجًا ممتعًا اسمه (أوكافنجو) على إحدى القنوات الثقافية .. لعلها القناة الجغرافية القومية أو (ديسكفرى) .. ولم يخطر ببالى قط أننى قريب منه لهذا الحد ..

قالت لى وهى تنظر لساعتها التى تظهر تاريخ اليوم :

ـ « سوف أعود إلى (وتدارى) .. صحيح أننى أفارق إخوة لى، لكنى برغم هذا أعرف أننى عائدة إلى أجمل بقاع الأرض .. »

ثم التمعت فى عينيها نظرة ماكرة :

ـ « ماذا لو قمت بسياحة سريعة ؟ أنت وذلك الروسى .. قلت لى ما اسمه ؟ »

ـ « (سيمياكوف) .. (فاسيلى سيمياكوف) .. »

ـ « نعم .. وخطيبته الإيطالية .. ماذا لو رتبتم إجازة لمدة ثلاثة أيام ؟ سوف أريكم أهم معالم المنطقة .. إنها أيام لا تُنسى .. أعدكم بهذا .. »

يمتلئ جنوب أفريقيا بالمتحمسين الذين يصرون على أن بلادهم أجمل بلاد الأرض .. لا أصدق هذا على طول الخط، لكنى قررت

أن أجرب .. أنا بحاجة إلى بعض التجديد والاسترخاء بعد ما مر بى فى دور الملاريا إياه ..

لكن هل يوافق المدير على الاستغناء عن ثلاثة أطباء مرة واحدة لثلاثة أيام كاملة ؟

بصراحة لم يعترض الرجل كثيرًا .. وقد أثار هذا ذهولى ..

بما أنها كانت رحلة لعينة بحق، فإن لى أن أفترض أن الرجل كان مجرد أداة لتنفيذ خطة الأقدار .. لقد وجد نفسه يوافق، والسبب هو أن الرحلة يجب أن تتم بشكل أو بآخر .. لابد أنه نظر لى فى ذهول وأنا أبتعد، ولابد أنه قال لنفسه : ماذا دهانى لأوافق بهذه السهولة ؟

الحقيقة أنك لم توافق يا سيدى المدير .. لقد جعلتك قوى أكبر منى ومنك توافق ..

وهكذا لا أعرف كيف تم الأمر وبهذه السرعة ..

ها نحن أولاء على متن طائرة ذات محرك واحد تحلق فوق سماء جنوب أفريقيا .. أخذنا هذه الطائرة من (أبنجتون Upington) التى هى تقريبًا عاصمة (كالاهارى) . طائرة يقودها طيار هولندى مكتنز أحمر الوجه يدعى (فولفمان) .. طيار أجرة فعلاً كالذين

تراهم فى القصص المصـورة ، يرتدى سترة جلديـة وياقـة فـراء تحيط بعنقه .. وهناك سيجار أبدى فى فمه ..

وكانت هذه هى البداية ..

★ ★ ★

3ـ الرحـلة ..

لماذا تلف المحرك ؟

لابد أنه تلف لذات الأسباب التى جعلت المدير يوافق ..

على كل حال شعرت بأن شيئًا كهذا حادث لا محالة وتوقعته .. السبب أننى كنت فى غاية الطرب والسرور ..

هدير المحركات يصم الآذان .. والطائرة نفسها بدائية من الطـراز الذى لن أندهش لو توقف فى منتصف السماء ونزلنـا ندفعـه .. بدائية تحمل بصمات الأسطى (مرسى) والشـحم وصبى الميكانيكى الذى ينام تحتها ..

لكن الطيار لا يبدو قلقًا .. لا أحد يبدو قلقًا .. وقد قلت لنفسـى من المستحيل أن تكون الرحلة خطرة لهذا الحد ، وبرغم هذا ظـل الطيار حيًا حتى هذه السن .. ما لم يكن هنـاك طيار جديد فى كل رحلة بعد وفاة السابق !

نحن جالسون فى مقاعدنا نطل من النوافذ ، وقـد سددنا آذاننـا لنتقى الهدير على عكس الطيار الوغد الذى يضع خوذة ..

لم نكن فى حاجة إلى الكلام على كل حال ..

هذه هى (كالاهارى Kalahari) رائعة الجمال ..

نرى الكثبان الرملية الحمر المميزة لها .. إنه عالم لا يوصف من الجمال ..

ولقد عرفت من (مارثا) من قبل أن صور (كالاهارى) تحيِّر أى مصور يراها ، فهو يفترض أن هناك خللاً ما فى اللون .. مستحيل أن تكون هذه الألوان طبيعية .. هكذا يقوم بتصحيح الألوان لدى الطباعة ..

السماء زرقاء كالحبر تقريبًا والكثبان حمراء اللون بينها ممرات بيض كالثلج .. النباتات خضراء .. خضراء بالمعنى الحرفى للفظة (أخضر) ..

إن لون الكثبان الأحمر يرجع لوجود أكسيد الحديد بكثرة .. بينها ممرات أو (شوارع) ذات لون أبيض ناصع .. يقال إن السبب هو أن أكسيد الحديد زال منها .. هذا يقتل الشاعرية لكنه يفسر الأمر على الأقل ..

إن (كالاهارى) ـ أخبرتنى (مارثا) ـ ليست صحراء بالمعنى الدقيق للكلمة ، أو هى أغرب صحراء يمكن تخيلها .. لو كانت هناك صحراء بها أنهار وغابات وسافانا وحيوانات برية ثرية ، فهى هذه الصحراء !

لكن وصف صحراء يصير دقيقًا كلما اتجهنا للجنوب .. نحو جنوب أفريقيا .. تعبر حدود (بتسوانا) فترى الصحراء القاسية التى صرنا نحلق فوقها الآن .. هنا موطن أكثر أقاليم الأرض جفافًا ..

باختصار (كالاهارى) تبدأ فى الشمال على شكل جنة أرضية .. أنهار .. خضرة .. أزهار .. حيوانات برية .. ثم تتجه إلى الجنوب فتتحول تدريجيًا إلى صحراء حقيقية كالتى تراها فى الكوابيس .. هذه الصحراء هى ما نراه الآن !

لا توجد حدود معروفة لـ (كالاهارى) .. لم يتفق الناس بعد على حدود لها .. إنها تشمل ثلاثة بلدان ولا تعرف أبدًا متى تنتهى ومتى تبدأ .. وفى رأى الكثيرين أنها ممتدة حتى خط الاستواء ..

قالت لى (مارثا) قبل الرحلة :

ـ « سوف نحلق فوق محمية (وسط كالاهارى) .. إنها ثانية أكبر المحميات فى العالم .. هناك أسود وضباع و(ميركات) وظباء .. سترى كم أن هذه البلاد ثرية .. »

ونظرت من طرف عينى إلى الروسى وخطيبته فوجدتها تريح رأسها على كتفه .. لا شعوريًا تعانق كفاهما .. إنهما هنا .. يريان هذا الجمال حقيقة ..

هذه من اللحظات النادرة التى تزيح فيها الطبيعة النقاب عن سرها الأعظم الذى تخفيه عنك .. إنه الحب .. إنه اللحن الذى يعزفه صوتان أحدهما خشن والآخر رقيق .. كل الحياة ثنائيات متناسقة .. الليل والظلام .. البحر والسماء .. حتى الوجود والعدم ..

وشعرت بغصة فى حلقى .. لى نصف آخر .. لكنه على بعد آلاف الأميال هناك على ساحل أفريقيا الغربى .. ربما كانت (برنادت) ستفعل الشىء ذاته لو كانت جوارى ..

بالطبع هناك (مارثا) .. لكنك لن تعانق يد فتاة لا تعرف عنها أى شىء ولا تحمل لها عاطفة سوى الاحترام ، لمجرد أن المنظر الذى تراه يحرك المشاعر !!

هكذا ألقيت فى فمى بقطعة من اللادن الذى له مذاق النعناع ، وقذفت لـ (مارثا) بقطعة أخرى فالتهمتها شاكرة .. وتنهدت .. لابد أنها تفكر فى الشىء ذاته .. لن تقع فى حبى لمجرد أننى رجل وأننى موجود فى هذه اللحظة ..

ونظرت إلى ظهر (فولفمان) البدين الذى يبدو كأنه ظهر فرس نهر .. نظرت له فى حسد .. هذا رجل لا يمكن أن يحمل أية مشاعر ، وعلى الأرجح لا تعتمل فى قلبه أية عواطف سوى الحب الشديد لمالنا الذى سيحصل عليه بعد الرحلة ..

هنا بدا أنه تعجّل الحسابات ..

المحرك يصدر صوتًا ..

فى البدء قلت لنفسى إننى هستيرى مخبول .. وسرّنى هذا التفسير ..

كل إنسان يركب طائرة يتظاهر بالذكاء وبأنه يرى ما فات الطاقم كله .. فى إحدى حلقات (منطقة الشفق) ـ المسلسل الأمريكى المخيف الشهير ـ ملأ الرجل العصابى الطائرة رعبًا لأنه يرى كائنًا بشعًا على جناح الطائرة .. لكن ـ لا تقلق يا (علاء) ـ اتضح فى النهاية أنه على حق !

الصوت يتعالى .. يتعالى ويخرق تلك النغمة الرتيبة التى اعتدتها ..

ونظرت إلى الأمام حيث المروحة ، فوجدت أن الكارثة واقعة لا محالة .. إنها لا تدور بانتظام ..

نهضت من مقعدى وانحنيت على الهولندى البدين ، وأدركت على الفور من حركاته السريعة وتوتره والعرق الذى يغمر جبينه أن شيئًا ليس على ما يرام .. سألته عما هنالك ، فقال :

ـ « عد واجلس .. »

ـ « لكن .. »

ـ « عد واجلس .. هناك مشكلة فى المحرك .. »

عدت لمقعدى شاحب الوجه فسألتنى (مارثا) عما هنالك ، فقلت بلا مبالاة :

ـ « لا شىء .. »

لكنى أدركت أن هناك كل شىء ..

★ ★ ★

وجلست جوار النافذة أرمق كثبان الرمال الحمر فى رعب ..

لا تقلق يا صاحبى فعمًا قريب جدًا سوف تدفن فى هذه الكثبان أو تمشى فوقها !

سوف تنتقل من حلم الطيران الشامخ حيث تحلق بين السحاب ، وترى كل شىء من عل وتسيطر على مصيرك ، إلى كابوس المشى فى الصحراء .. أنت تعبر الأبعاد والآباد فى دقائق ، لكنك سوف تمشى أيامًا لتتحرك بضعة كيلومترات .. هذا لو بقيت حيًا ..

أدركت أن الأمور تسوء عندما راح الطيار يتكلم فى جهاز اللاسلكى ، وسمعت الكلمة المخيفة التى عرفتها من الأفلام الأمريكية :

ـ « ماى داى .. ماى داى .. »

فيما مضى كنت أحسب معناها (يوم مايو) ثم عرفت أنها تحريف أمريكى للفظة (ساعدونى m'aidez) الفرنسية ..

نظرت للآخرين فوجدت العاشقين غارقين فى أحلام الغد السعيد .. (مارثا) لا تبدى أية علامة على أنها تلاحظ ما يحدث .. سأواجه هذه اللحظات القاسية وحدى ..

* * *

فقط لتكن سريعة .. لتكن سريعة يا إلهى ..

وتلوت الشهادتين وأنا أرى أننا ننحدر إلى أسفل .. زاوية حادة جدًا تصلح للمقاتلات المنقضة ، مع اهتزازات محببة فى المقعد .. كأنك تركب خلاط خرسانة لا طائرة ..

ثم أفاقت (سيمونيتا) من حلمها الرومانسى لتطلق صرخة حادة رفيعة طويلة .. الصرخة التى أضفت للكارثة طابعها الرسمى .. فى مصر فى الأحياء الشعبية تذهب النسوة للمجاملة عندما يموت جار لهن ؛ فيطلقن الصراخ (الحيانى) وهن ما زلن فى الشارع .. تعتبر إهانة للمتوفى ألا تنطلق بعض الصرخات الحرى من حناجرهن .. وإلا فالمتوفى قد (مات فطيس) بلا صرخة واحدة (يا حبة عينى) .. يبدو أن (سيمونيتا) قررت أنه من الحرام أن نموت (فطيس) ..

هكذا راحت تصرخ وتصرخ ..

والأرض تقترب .. وتقترب ..

الطيار الهولندى يقوم بعدد لا بأس به من الحركات الهستيرية .. يجذب أشياء ويحرك أشياء ..

الفتاة تصرخ ..

الأرض تقترب ..

مرحبًا بكم يا سادة فى (كالاهارى) !

★ ★ ★

4- المــأزق ..

هأنتذا عاجز تمامًا فى يد قوى الفيزياء .. قوى قصور ذاتى وعزم قص وطرد مركزى وعجلة جاذبية .. كل الأشياء التى كنت تدرسها فى المدرسة لتسكبها على ورقة الامتحان وتنساها .. الآن هى تتحكم فيك تحكمًا كاملاً .. وأنت دمية بلا وزن ..

تدرك أن مقدمة الطائرة تنغرس فى الكثبان وأن الطائرة تزحف فوق الرمل زحفـًا .. يصطدم أنفك .. دمية .. يلتوى جسدك .. دميـة ..

ثم يتوقف كل شىء ، وقد استمر عدة قرون ..

تريح رأسك إلى المقعد الذى أمامك وتغمض عينيك بضع دقائق .. لعلها ساعات ..

كل شىء يقـول إنـك لم تمـت وإن الطـائـرة اسـتقرت على الأرض ...

دمية ...

ترفع رأسـك لترى الآخرين فتدرك أنهم تحولوا إلى عجين لكنهـم ما زالوا أحياء ..

تنهض مترنحًا إلى قمرة القيادة وهى ليست قمـرة بالمعنى الحرفى للكلمة .. إنها مكان فى مقدمة الطائرة وكفى ..

هناك يجلس الطيـار الأحمق (فولفى) .. ربمـا هو ليس أحمق لكنه تعس الحظ .. إنه ينظر لك والسيجار بين شفتيه ، ويقول :

ـ « الجميع بخير ؟ جميل !! »

تدرك أنه ينزف من أنفـه وأن فخـذه فى وضـع غير طبيعى .. جميل .. هذا ما كان ينقصنا ..

ـ « هل أنت بخير ؟ »

يتحسس بطنه ، ثم يقول وهو يلهث :

ـ « لا أعرف .. ربما كان هناك نزف داخلى أو لا . لكن من المؤكد أن فخذى تهشمت .. »

تتجه إليه لتفحصه وسط هذه الفوضى ..

لقد ارتفع الرمل ليغطى النـافذة الأمامية تمامًا .. لكنـه لم يهشمها وهذا غريب .. معنى هذا أن منخر الطائرة على الأقـل قد استقر تحت الرمال ..

يقول وهو يئن :

ـ « هل ترى هذه الخزانة أيها الشاب ؟ إن فيها ترياقى الخاص .. إن جرعة من الويسكى سوف تزيل هذا الألم .. »

أقول له وأنا أتفحص فخذه :

ـ « انس هذه القاذورات الآن .. لا داعى لأن تتلف كبدك كنلك .. »

قال وهو يتلوى ألمًا :

ـ « أى ى ! يا لـك مـن خنـزير ! لم أعرف أنك وحش سادى لهذا الحد .. »

ـ « وها قد عرفت .. والآن دعنى أكمل عملى .. »

ثم أبحث عن شىء يصلح .. من العسير أن تجد جبيرة عندمـا تبحث عن واحدة ، لكنى كنـت سعيد الحظ فعلاً لأن هنـاك رافعة مثبتة للجـدار .. هذه تصلـح جبيرة للفخذ مـع استخدام قميص الرجل لتدعيمها .. عمل بدائى جدًا ، لكن هل لديك حل أفضل مـن هـذا ؟

قلت له وأنا أحكم ربط القميص :

ـ « هل جهاز اللاسلكى يعمل ؟ »

طبعًا لا .. هذه الأجهزة لا تتلف إلا عندما تحتاج لها فعلاً .. الهاتف الجوال يظل فى أفضل حالاته عندما تتصل الفتاة بخطيبها لتعرف نوع الأطعمة التى يفضلها وأغنية (عمرو دياب) الأثيرة عنده ، بينما يتلف عندما يحاصرها سبعة مجرمين يلوحون بالسيوف ..

عدت أسأله :

ـ « ما المصير ؟ »

قال وهو يضغط على السيجار :

ـ « لا شىء .. هذا سيناريو ضياع الطائرة المعروف .. سوف يبحثون عنا عندما لا نصل حتى المساء .. أعتقد أن أية طائرة منخفضة سترانا .. »

ولكن ماذا إذا كنا مدفونين بالكامل ؟

أثارت هذه الفكرة رعبى ..

مددت يدى إلى مقبض الباب المجاور له وحاولت فتحه لكنه لم يستجب .. إنها الرمال خلفه بالتأكيد ..

هكذا غادرت قمرة القيادة إلى حيث كنا جالسين .. نظرت من النوافذ فرأيت الكثبان الرملية .. معنى هذا أننا لسنا مدفونين بالكامل والحمد لله .. يا لى من أحمق ! طبعًا لسنا مدفونين وإلا فمن أين

يأتى هذا الضوء ؟ لابد أننى أصبت بارتجاج مخى جعلنى أشد غباء من مستنقع .

وجربت بابًا آخر ..

كان يستجيب نوعًا لكن الرمال خلفه كانت تجعل الأمر عسيرًا .. هكذا طلبت عون (فاسيلى) ورحت أزيح الرمال جانبًا باستعمال رفش مرتجل هو أصابعى .. ركعت على ركبتى ورحت أزيح الرمال بينما واصل هو دفع الباب ليتيح لى حرية حركة أكثر ..

الباب ينفتح ببطء ...

ـ « هيا .. استمر .. »

الباب ينفتح أكثر ..

فى النهاية وجدت أننى أثب خارج الطائرة فوق الكثبان .. ما زالت ساقاى سليمتين إذن ..

ابتعدت عدة خطوات ثم استدرت لأفهم الموقف ..

حقًا كانت الطائرة مغروسة فى الرمال بأنفها .. يبدو أنها زحفت كثيرًا لأنها رسمت نفقًا من خلفها .. ومن حسن حظنا أن الاحتكاك لم يجعلها تشتعل .. هذه الأمور تحدث دائمًا فى السينما ..

الرمال لا ترتفع حول باقى الجسم أكثر من اللازم ..

يمكن القول إننا نجونا فعلاً ..

ثم وجدت أننى أتعجل الاستنتاجات ..

الكثبان فى كل مكان من حولى .. لا إنسان .. لا حيوان .. لا نبات ..

رمال فى الجهات الست أو الأربع منعًا للمبالغة ..

حرارة شديدة وجفاف لا يصدق .. كأننى أقف عند فوهة (سيشوار) عملاق ...

لو لم يكن معنا قصاص أثر أو واحد من قبائل (البوشمن) لأمكن القول إننا ضعنا وإننا لم ننج بعد ..

إنه لمأزق ، لكنى أكره أن أصفه كذلك بعد عشر دقائق من حدوثه .. دع التذاكى لوقته المناسب يا أخ (علاء) .. يجب أن نستنفد كل السبل أولاً وأن نتأكد من أنهم لن يبحثوا عنا ، أو سوف يبحثون عنا لكنهم لن يجدونا ..

★ ★ ★

رأيت الخطيبين يخرجان من الطائرة ويشقان الطريق نحوى ، وسألنى (فاسيلى) سؤالاً سخيفًا على غرار (هيه .. إزاى الحال ؟) .. فأجبته إجابة أسخف على غرار (زفت) ..

قالت الفتاة فى حماس :

ـ « سوف يجدوننا بسرعة .. إن قلبى يخبرنى بذلك .. »

كنت مدينًا لهذين بالكثير .. بشكل ما أنقذا حياتى عندما كنت مصابًا بالملاريا .. إنهما صديقان حقيقيان ، لكنى شعرت فى هذه اللحظة بأننى لا أحتمل وجودهما ..

لقد اتضح الأمر واكتملت كل الاستنتاجات .. فما دور السخافات على غرار (نجونا بمعجزة .. إلخ) .. ؟ الموقف واضح ولا يحتاج لأية تفسيرات ..

راح كل من يحمل جهاز هاتف جوال يجربه .. طبعًا لندرك بعد قليل أن الشبكة لم تصل لهذا الموضع من كالاهارى .. الهاتف يفتش فى لهفة عن الشبكة ، وهذا يعنى أن الشحن الكهربى سينتهى عما قريب ..

قلت لهما ، وأنا أركل الرمال :

ـ « سوف نعود للطائرة وننتظر .. لا أرى حلاً آخر .. »

ـ « هل المؤن تكفى ؟ »

ـ « لا أعرف .. لم نتهيأ إلا لرحلة مدتها بضع ساعات .. تكفى أو لا تكفى ؛ هذا يتوقف على الفترة التى سنمضيها هنا ، وعلى كل حال أرى ألا نتذوق أى شىء من الطعام اليوم .. فلنحرق ما فى أكبادنا من شحوم أولاً .. »

ـ « والطيار ؟ »

ـ « لو كان مصابًا بنزف داخلى فنحن فى مأزق مخيف .. لكنى لا أرجح ذلك .. »

ـ « و (مارثا) ؟ »

هنا تذكرت ..

لقد كنا أربعة مع الطيار ..

نسيت كل شىء عن الفتاة هاوية العقارب .. ومن الغريب أننى لم ألق نظرة واحدة نحو مقعدها .. هذا عجيب !

هكذا رحنا نركض عائدين إلى الطائرة ..

بالطبع لم نجد لها أثرًا ...

★ ★ ★

5ـ البحث ..

فيما بعد عرفت أنهم انتظرونا طويلاً فى (أبنجتون) ..

عرف (جورج ماوويكى) عامل الاتصالات الأفريقى فى المطار الصغير أن الطائرة سقطت على الأرجح .. هكذا تسقط الطائرات .. ينقطع الاتصال فجأة ثم لا تعود الطائرة أبدًا .. ناهيك عن أن آخر رسالة تلقاها هى (ماى داى) .. الرسالة السوداء المرعبة ..

فى غرفته الضيقة كريهة الرائحة ، يجلس أمام جهاز الراديو .. ينظر شارد الذهن إلى الدخان المتصاعد من قدح الشاى .. البخار يصنع غشاوة على عويناته .. يكرر مرارًا لا حصر لها بلغة الأفريكانز :

ـ « فولفى .. أجبنى ! »

لا يوجد شىء رسمى هنا ؛ لذا يستعمل أسلوب الخطاب العادى ..

لا جدوى .. الليل يقترب ولا جدوى ..

بدأ الطيارون ـ ومعظمهم هولنديون ـ يجتمعون فى الغرفة .. وامتلأ الجو بدخان التبغ ..

راحت الاحتمالات تتوالى ..

وفى السادسة مساء اتصل بوحدة (سافارى) ليسأل عن الفريق .. هل اتصل واحد منهم بكم ؟ لا أحد .. إذن نحن نعتبر الطائرة مفقودة ..

لابد أن الهلع عم وحدة (سافارى) ..

لكن من كان فى يده التصرف هو الطيران أو هؤلاء الطيارون الهولنديون الذين يهمهم أن يجدوا زميلهم (فولفى) ...

ـ « كانوا أربعة .. ثلاثة أطباء من (سافارى) وفتاة من مركز طبى فى (وتدراى) .. ليست معهم مؤن .. »

جلس الطيار الهولندى الأشقر (فان ثورن) الذى يبدو كأبطال السينما ، بذقنه المربعة وكتفيه العريضتين جوار (ماوويكى) وفرد الخارطة التى تظهر الصحراء أمامه ..

ـ « متى انقطع الاتصال وسمعت الاستغاثة ؟ »

ـ « فى تمام الرابعة و15 دقيقة .. »

جرت حسابات معقدة لاتجاه الطائرة وسرعتها .. ومن حين لآخر يتدخل أحدهم مصححًا فى عصبية .. لابد أن الأمر استغرق نصف ساعة ..

ومن حين لآخر يفتح الأفريقى اللاسلكى ليكرر نداء (فولفى) ..

عندما انتهت الحسابات أشار (فان ثورن) إلى بقعة من الخارطة مستعملاً سيجاره الغليظ كمؤشر ، وقال :

ـ « هم اختفوا فى هذه الرقعة قرب حدود (بتسوانا) .... »

قال آخر :

ـ « لو اتجهوا للشمال الغربى لبلغوا (تشابونج) ... »

لكن من أين لهم أن يعرفوا ؟ منطقة قدور الملح مشهورة بأن الناس يضلون الطريق فيها .. أحيانًا يموتون وهم على بعد أمتار من معسكراتهم .. هناك تشابُه معالم الصحراء .. هناك الرعب وفقدان التفكير المنطقى .. التخبُّط !!!

كل شىء يبدو أسهل عندما تبصره من أعلى .. تبدو الأمور واضحة تمامًا .. ربما لهذا تعرف الطيور الحقيقة وتقترب من حل اللغز .. لابد أنك لو نظرت من أعلى إلى (ثيذيوس) وهو يمشى فى متاهة المينوتور لحسبته أحمق أو معتوهًا ..

هنا قال أحد الرجال بلا مناسبة :

ـ « (فولفى) مدين لى بالمال .. لقد غلبته فى الكونكان أول من أمس ! »

قال آخر :

ـ « حتى لو وجدته ، فهو لا يدفع ديونه أبدًا .. »

كان هذا أسخف شىء يمكن أن يقال فى مناسبة كهذه .. لكن هؤلاء القوم لم يكونوا يبالون باللياقة فحياتهم خشنة حقًّا .. من الغريب أن هذا بدا مطمئنا بالنسبة للرجال : على الأقل هذا حافز جيد كى يبحث عن (فولفى) ويجده ..

* * *

فيما بعد عرفت أن الرجال قرروا القيام بالتحليق فوق المنطقة ..

صاح (ماوويكى) فى غيظ مجنون :

ـ « أنتم مجموعة من المخابيل .. إن الليل دان .. لن يعود أحدكم !! »

قالها وهو يضرب المنضدة بيده ..

قالها وهو يقف فى الخارج ينظر للرجال ، وهم يثبون فى طائراتهم ..

قالها وهو يرى ضوء الكشافات الساطع يعمى العيون ..

قالها وهو يرى ثلاث طائرات تنطلق فى الممر ، وهديرها يصم الآذان ..

قالها وقد خلا الأفق من الوحوش الذاهبة إلى حيث لا رجعة ..

ـ « مجانين .. أنتم أسفل عينة من الحمقى على ظهر الأرض ! »

ثم بصق على الأرض واطمأن أن أحدًا لا يسمعه ، وقال :

ـ « أنتم جديرون بأن تكونوا من البيض .. البوير !! »

عاد إلى داخل الغرفة الضيقة وصب لنفسه بعض الشاى من الترموس العملاق الذى أعده عصرًا ، وجلس أمام جهاز اللاسلكى .. هذه المرة هناك ثلاث طائرات أخرى ..

هنا دخل (فان ثورن) الغرفة ..

لم يكن من الرجال الذين حلقوا بطائراتهم وهذا غريب .. فى العادة لا يترك هذا الطيار الهولندى فرصة للتضحية بحياته ..

جلس (فان ثورن) جواره على المنضدة وصب لنفسه بعض الشاى ، ثم عاد يتفحص الخارطة ..

ـ « منطقة قدور الملح قرب (تشابونج) .. لم يجدوا مكانًا أفضل ! »

ـ « لو كان بوسعنا أن نختار المكان الذى نسقط فيه بالطائرة لصارت الحياة جميلة جدًا ! »

ضحك (فان ثورن) على هذه الملحوظة ..

ثم عاد إلى التعبير الجاد المرسوم على وجهه الصلب ، وقال :

ـ « أنا لا أمزح .. هذا المكان بالذات .. هل تذكر ما حكاه (هنرييك فان راين) ؟ »

قطب الأفريقى جبينه وبدا أنه يحاول أن يتذكر .. ثم بدت الخطورة على ملامحه ، وقال :

ـ « هل تعنى ؟ »

ـ « نعم .. »

ـ « هذه مجرد خرافات عجائز .. جدتى تحكى قصصًا أفضل .. »

ـ « ليس عندما يحكيها (فان راين) .. (سكوتى) .. (البوشمن) .. »

ثم أطفأ السيجار فى قدح الشاى .. دوى صوت (طش ش ش) العالى .. وكرر فى ضيق :

ـ « لم يجدوا مكانًا أفضل .. ! »

★ ★ ★

6 ـ قدور الملح ..

لم نجد (مارثا) فى الطائرة ..

كيف ومتى ؟

بحثنا تحت المقاعد وأشياء مضحكة مماثلة ، لكنها كانت قد تبخرت فعلاً ..

على قدر علمى أنا أول من فتح الباب ، فكيف استطاعت أن تغادر الطائرة ؟ أعتقد أننا لم نرها منذ عدنا لوعينا .. لو كانت قد خرجت فى تلك اللحظات القصيرة ، فلماذا لا نرى الباب مفتوحًا ؟

استدرت إلى الطيار (فولفى) الجالس فى القمرة يندب حظه وصحت :

ـ « هل هناك أبواب سرية هنا ؟ مخرج طوارئ كالذى يوجد فى الدبابات ؟ »

قال وهو يمضغ سيجاره :

ـ « لم أقد دبابة من قبل أيها الشاب .. لكن دعنى أؤكد لك إنه لا توجد أبواب هنا .. »

ماذا حدث وكيف ؟

هل كانت (مارثا) شبحًا أم حلمًا جماعيًا ؟

اضطررت أن أسأل الطيار غير مبال بصورتى كأبله :

ـ « هل رأيتها معنا ؟ فتاة سمراء نحيلة .. »

قال فى ضيق :

ـ « من تظنه استأجر هذه الطائرة أيها الشاب ؟ كان كل تعاملى معها .. من الواضح أنها تعرف (كالاهارى) .. »

ـ « بالتأكيد تعرفها .. هل لديك فكرة عن المكان الذى اختفت فيه ؟ »

ـ « لا أعرف أيها الشاب ... »

كان يحتضن زجاجته .. لا أعرف كيف حصل عليها ، ثم عرفت أنه (فاسيلى) الذى رق للرجل .. يبدو أنه يكره أن يموت من دون أن يكون مخمورًا ..

★ ★ ★

على الرمال الحمراء جلسنا نتناقش عما يجب عمله .. فى الواقع لم تكن هناك أفكار على الإطلاق .. فقط نتبادل النظرات ..

فجأة صاحت (سيمونيتا) وهى تشير إلى ما وراء كتفى :

ـ « انظر ! ما ألطفه ! »

نظرت إلى الخلف لأرى على بعد خمسين مترًا منظرًا بالغ اللطف فعلاً ..

كأنه كلب نحيل لعوب يقف على ساقيه الخلفيتين .. لا يفعل ذلك مؤقتًا كأى كلب ، بل يبدو أن هذا وضعه الدائم الذى يروق له .. كان يرمقنا بعينين شقيتين فضوليتين كأنه متطفل يريد معرفة من نحن وماذا نفعل هنا ..

ثم ـ كأنه وجد أننا أتفه من أن يضيع وقته معنا ـ راح يمشى على قائمتيه .. ومن خلفه رأيت عشيرة كاملة تشبهه .. كلهم يمشون مثله ..

هنا تذكرت أين رأيته .. إنه (تيمون) بطل فيلم (الملك الأسد) اللطيف الحشرى الثرثار .. هذا هو .. وإذن هذا هو حيوان (الميركات Meerkat) الشهير .. لم أعرف أنه يقطن (كالاهارى) من قبل .. كنت أحسبه فى الهند ..

قال (فاسيلى) :

- « هذا هو (الميركات) .. إنه رمز (كالاهارى) .. لقد حكت لى (مارثا) عنه .. »

(مارثا) من جديد .. تعرف كل شىء ومن دونها نحن ضائعون .. أعتقد أنها قادرة على العودة بنا إلى (سافارى) مشيًا لو أرادت .. الطيار البدين يعرف الكثير لكنه طاقة معطلة ..

راحت الحيوانات الظريفة تتواثب مبتعدة .. لا أعنى أنها تتواثب كالكنغر ، لكنها تمشى كرجل يعانى بعض العسر مع هذه الكثبان ..

هنا صاحت (سيمونيتا) فى انبهار وقد تذكرت شيئًا مهمًا :

- « لحظة ! (الميركات) ليس حيوانًا مدربًا على تحمل الظمأ .. لابد له من أشجار ومصدر ماء .. لا تتركوا هذه الحيوانات تبتعد .. »

جميل !

إذن أنا الغبى الوحيد هنا ..

كل إنسان يعرف ما ينبغى عمله بدقة ..

على إن هذه الحيوانات توارت فى مكان مرتفع من الكثبان .. هكذا ركضنا لنلحق بها فلم نجد لها أثرًا ..

هذه الصحراء تذيب الناس والحيوانات أو هى أروع مكان لخلق الأوهام عرفته فى حياتى ..

قالت (سيمونيتا) :

- « لا تخف .. أنت لست واهمًا .. كلنا رأينا هذه الحيوانات .. لكن الكثبان كثيرة .. من المستحيل أن تجد ما تبحث عنه فى (كالاهارى) .. »

ثم رفعت رأسها للسماء وقد اتخذت طابعًا حاسما وقالت :

- « أعتقد أن علينا أن نمشى فى ذات الاتجاه .. »

صحت فى رعب :

- « آهاه ! هذه هى البداية .. وطبعًا لن نستطيع العودة للطائرة أبدًا ! شكرًا ! . لقد رأيت ما يكفى من الأفلام فى حياتى .. »

قال (فاسيلى) :

- « بالعكس .. إن الشمس تدنو من الغرب .. هذا هو الاتجاه الذى يجب أن نبقيه على يسارنا .. طالما نحن نعرف الغرب فسوف نتمكن من العودة .. »

ثم قال بلهجة فيها تحدٍ واضح :

- « يمكنك أن تبقى هنا مع الطيار وسوف نعود خلال ساعة .. »

لكنى بالتأكيد لم أكن راغبًا فى البقاء هنا بلا حراك مع طيار ثمل جريح .. على الأقل يمكن للحركة أن تعطينا أملاً .. نحن ثلاثة وكلامه عن الشمس الغاربة منطقى ..

فقط لو تجد علامة واحدة !! علامة واحدة تذكرك بالطريق !

فى كل لحظة تشعر أن هذا الكثيب مميز الشكل ، وأنك ستعرفه عندما تمر به ثانية .. ثم لا تلبث بعد دقيقة أن تكتشف أن هناك العشرات منه .. لا معالم على الإطلاق ..

أما الأسوأ فهى تلك المنخفضات الشاسعة التى يكسوها الملح .. قالت لنا (مارثا) إن (كالاهارى) معناها (قدور الملح) .. والسبب هو تلك الظاهرة الجيولوجية التى توشك أن تتفرد بها .. فيما بعد قرأت أن (كالاهارى) معناها (الظمأ الأعظم) .. بصراحة لست متأكدًا من أى المعلومتين أدق ، لكنى أثق بـ (مارثا) ..

(مارثا) ! أين أنت ؟ لو ظهرت الآن لطلبت يدك للزواج ! لست ملائكية مثل (برنادت) ولست غزالاً أفريقيًا خرج من الدغل مثل (أونوابا) ، لكنك على الأقل تعرفين كل شىء .. كان بوسعك أن تحفظى حياتنا لو كنت موجودة ..

★ ★ ★

قلت للطيار :

- « هل أنت واثق من أنك قادر على العناية بنفسك ؟ »

كان رأسه قد امتلأ بالكحول الآن ، ودخل مرحلة (أنا جدع) الشهيرة ، لذا بدا له أنه قادر على العناية بأمة من المشلولين .. قال لى وهو يعبث فى شىء فى (تابلوه) الطائرة :

- « لا تقلق أيها الشاب .. (فولفى) العجوز جريح لكنه لم يمت .. »

وسمعت صوت (كليك كليك شاك) المميز فنظرت ..

كان يعالج (ترباس) مسدس أعتقد أنه ألمانى الصنع .. هكذا جعله معدًا للإطلاق .. ودسه فى حزامه وبدا راضيًا ..

- « دع واحدًا من هؤلاء الأوغاد يحاول شيئًا ولسوف يجد مخه على كفيه ! »

جميل هذا الحماس .. لكن من هم هؤلاء الأوغاد ؟ أتمنى لو قابلت وغدًا واحدًا فهذا يمنحنا الكثير من الأمل .. مشكلة الحياة أنك لا تقابل أوغادًا عندما تريد بعضهم ..

قمنا بتقسيم المؤن على أساس الثلث له .. أعنى بالمؤن بعض الماء وبعض البسكويت .. هو جريح ونحن سنمشى فى الصحراء .. لذا بدا لى أن هذا أكثر الحلول عدلاً .

قال له (فاسيلى) وهو لا يخفى قلقه :

ـ « سوف نعود سريعًا .. لو لم نجد شيئًا سنعود .. لابد من المحاولة كما تعرف .. »

كان الرجل يلهث وبدا راغبًا فى النوم فهز رأسه بما معناه (ليكن .. ليكن .. اذهبوا للجحيم ولا تضايقونى) ..

وهو ما كان فعلاً ...

★ ★ ★

7 ـ اختفـــاء ..

مشــينا فــوق الرمــال الساخنــة لدقائــق نقفــو أثــر ذلــك (الميركات) ..

هبطنا فى أحد قدور الملح تلك .. ومشينا على الأرض الخشنة المغطاة بالبلورات .. أعرف أن الوحوش ترتاد هــذه الأمـاكن بكثرة لتلعق الملح .. لكن لا يوجد شىء حاليًا ..

هل تذكرين الاتجاه يا (سيمونيتا) ؟ أنا أشعر أننا أخطأنا .. لكن الشمس الغاربة على اليسار ..

لا شك فى أننا فى اتجاه صحيح ..

قال (فاسيلى) وهو يلهث :

ـ « هل تعرفون أية أغنية ؟ هذا الصمت يقتلنى .. »

قلت فى غيظ :

ـ « لمـاذا لا تخرس ؟ من الأجـدر الاحتفــاظ بلعابك بدلاً من تبديده فى هذا الكلام الفارغ .. »

لكن صوت (سيمونيتا) تعالى فعلاً .. كـانت تغنى مقطعًا من أغنية شعبية إيطالية ما بصوت جميل جدًا ، واستمرت تغنى حتـى

تحشرج صوتها فسكتت .. هنا ارتفعت عقيرة الروسى ينشد (كالنكا) .. اللحن الروسى الشهير .. راح ينشده بحماس وهو يواصل المشى ويضرب الرمال بقدميه ..

أخيرًا انتهت ذخيرته من الصوت واللعاب فخرس كما تمنيت .. هنا رفعت عقيرتى وبدأت أغنى : « يا عزيز عينى وانا نفسى أروّح بلدى ... »

هذا المشهد مألوف .. متى رأيته ؟ نعم .. المريض الإنجليزى فى الفيلم الذى يحمل ذات الاسم ، عندما كان يغنى هذه الأغنية فى الصحراء بعربية كسيحة .. كم أشبهه الآن !

« يا عزيز عينى وانا بدى أروح بلدى ...

« بلدى يا بلدى .. والسلطة أخدت ولدى .. »

لحن (سيد درويش) العبقرى يتردد فى صحراء (كالاهارى) للمرة الأولى على قدر علمى ..

★ ★ ★

- « ستا كالافريزللا موريرى مى فا .. »

- « كالنكا .. كالنكا .. كالنكا »

- « يا عزيز عينى وانا بدى أروح بلدى ... »

- « كالنكا .. كالنكا .. كالنكا »

- « بلدى يا بلدى .. و السلطة أخدت ولدى .. »

- « موريرى مى فا .. »

- « يا كالنكا عينى .. وانا نفسى أروح مى فا .. »

- « ستا كالافريزللا أخدت ولدى .. »

ثم دوت الطلقة التى ارتجت لها الصحراء !

★ ★ ★

- « الطيار ! »

- « فولفى ! »

هكذا استدرنا ورحنا نركض فوق الكثبان ..

لم نكن قد ابتعدنا كثيرًا لذا رحنا ننهب المسافات نحو الموضع الذى قدرنا أن الطائرة فيه ..

ماذا حدث ؟

هل قرر الانتحار فجأة ؟

أخيرًا وجدنا أننا نرى الطائرة الرابضة فى الرمال .. كان ضوء الغروب يغمرها الآن .. شبح قرمزى منهك يتهيأ للنوم ..

جرينا إلى الطائرة .. تعثرنا .. التوى كاحلى .. ابتلع (فاسيلى) الكثير من الرمال .. أطلق السباب .. واندفعنا إلى الداخل ..

لا شىء ..

لا دماء .. لا جثث .. لا طيار ..

لا شىء ..

لقد اختفى (فولفى) فى ظروف غامضة .. ظروف تستدعى إطلاق الرصاص لكنها لا تترك جثثًا !

★ ★ ★

بعد ما تناقشنا وتبادلنا النظرات الغبية الضرورية لهذا الموقف ، قررنا أن الاحتمالات لا تزيد على اثنين :

1- لقد اختطف الطيار ... لا نعرف من ولا لماذا فعل ذلك ، لكن هذا هو الاحتمال الأرجح ..

2- لقد رحل الطيار .. ربما ذهب يجرب حظه أو يبحث عن نجدة أو يقضى حاجته فى مكان ما ولم يستطع العودة .. وهو احتمال ضعيف لأن ...

ـ « الذين يرحلون بإرادتهم لا يطلقون طلقة رصاص قبل رحيلهم .. »

ـ « والذين يرحلون بإرادتهم لا تكون أرجلهم مكسورة .. »

قلت فى شىء من تواضع :

ـ « لا أعرف .. ربما كانت حالة الكسر فى فخذه أفضل مما توقعت ، ومن الوارد دائمًا أن أكون حمارًا .. لكن يظل هذا الاحتمال واهيًا .. »

قالت (سيمونيتا) وهى تعقص خصلات شعرها المجعد الطويل كى لا يضايقها :

ـ « لكن احتمال الخطف واه كذلك .. لا توجد آثار على الرمال .. آثار جر ومقاومة .. إلخ .. ثم كيف فعلوا هذا بهذه السرعة ؟ »

جمعت شعرها خلف رأسها فأدركت حقيقة أن شعر الأنثى تاج جمالها فعلاً .. لقد صارت أقرب إلى ولد مراهق .. أنوثة كاملة صنعتها تلك الخصلات المجعدة على وجهها منذ دقائق .. والآن صارت أقرب إلى صديقى فى المدرسة الإعدادية ..

تجاهلت هذا الخاطر الذى لا وقت له ، وقلت :

ـ « على كل حال لم يتغير شىء .. هل ترك ما معه من مؤن ؟ »

للأسف لم يفعل . عرفنا هذا عندما فتشنا الطائرة بعناية ..

كانت هناك رائحة عضوية كريهة بالداخل .. رائحة لم تكن موجودة ..

كان هنا شخص أو أشخاص لا يعتنون بنظافة أجسادهم .. هذا هو الأثر الوحيد الباقى على كل حال ..

إذن حان الوقت كى نستمر ..

ـ « هل نواصل مشينا فى الاتجاه الذى كنا فيه أم أن الطائرة أكثر أمنًا ؟ »

قالت (سيمونيتا) فى سخرية مريرة :

ـ « يا صديقى العربى .. من الواضح تمامًا أن الطائرة ليست أكثر أمنًا .. كل شىء هنا يؤكد ذلك .. »

كدت أتكلم لولا أن سمعنا صوتًا غريبًا .. هل هى معدتك التى تقرقر يا (فاسيلى) ؟ إن الغازات هذه ....

كان هناك صوت محركات .. لا شك فى ذلك .. وهذا الصوت يقترب ..

جرينا إلى الخارج .. من أين يأتى الصوت ؟

هذه الأضواء فى الأفق .. طائرات !

إنهم يبحثون عنا !

الطيارون فى القاعدة التى أقلعنا منها خرجوا للبحث عنا .. لا شك فى هذا ..

رحنا نركض كالبلهاء فوق الرمال ونصرخ .. نثب فى الهواء ..

الطائرات ـ يبدو أنها من طراز طائرتنا ـ تحلق فى السماء غير مبدية أية علامة على ملاحظتنا .. منتهى الغباء .. كأنه قطيع من الجاموس يمر بترعة ..

وصاح (فاسيلى) وهو يثب فى الهواء :

ـ « نحن هنا يا حمقى ! »

وصرخت أنا :

ـ « أطلق طلقة من مسدس الإشارة ! »

فقط لأتذكر أنه ليس معنا شىء كهذا ..

من هذا الارتفاع ومع اقتراب الظلام ، يبدو واضحًا أنهم لن يرونا ..

كنا حمقى لأننا لم نحاول إشعال نار أو شىء من هذا القبيل .. كان يجب أن نفكر فى شىء مماثل .. لكنك لا تسقط بالطائرة كل يوم فلا يظل ذهنك حاضرًا للأبد .. فى رواية (سيد الذباب) رائعة (جولدنج Golding) سقطت الطائرة بأطفال .. لكنهم كانوا أذكى منا بحيث لم ينسوا إيقاد نار وإبقاءها مشتعلة طيلة الوقت ..

الطائرات تبتعد .. ومعها يبتعد الأمل ..

إننا وحيدون ..

لم يبق إلا أن ننفذ خطتنا الوحيدة ..

نبحث عن الطريق الذى جاء منه (الميركات) !

★ ★ ★

8- زائر ليلى ..

لهذا تجدنا الآن جالسين على الرمال فى الظلام ..

ذلك المشهد الذى بدأت به القصة ..

ظلام دامس .. لا يوجد معنا مصدر للهب .. غير مهيئين لهذه التجربة على الإطلاق ..

كنا جالسين متلاصقى الظهور عندما رأينا هذا الشخص .. هذا الشىء يدنو منا ..

وبرغم كبرياء الرجولة فإننا جميعًا صرخنا .. رجلان وامرأة يصرخون كالأطفال ...

★ ★ ★

الملامح العامة له توحى برجل أوروبى ملتح يلبس ثيابًا خاكية ممزقة وفى يده بندقية .. الشكل المصطلح عليه للصيادين أو المستكشفين .. وكان يجر وراءه شيئًا ما ..

لكنه كان مسخًا ..

أقولها وأنا أطرق برأسى حياء ، فلست من هذا الطراز الهستيرى الذى يرى الأشباح فى كل ركن .. كان شيئًا مشوهًا تآكل أكثر

وجهه .. برز نصف الجمجمة .. اليد القابضة على السلاح أيضًا لم تكن على ما يرام .. كانت عظمية تمامًا ..

عيناه لم تمسا .. وكانتا جمرتين من نار كعينى أى نمر مهيب ..

هذا الشىء المخيف كان يتقدم نحونا الآن فى حركة بطيئة مترنحة تذكرك بالزومبى فى أفلام (روميرو) ، ولا شىء يضىء معالمه إلا ضوء النجوم الخافت ..

لشد ما تكتسب العين حساسية فى هذا الظلام البكر !

لقد صرنا نرى كالقطط .. لا تفاصيل ضائعة سوى اللون ، وقد خيل لى للحظة أننى أراه فى ضوء أخضر كالذى يميز معدات الرؤية الليلية .. ضاعف هذا الشعور أن عينيه كانتا تتوهجان فعلاً ..

ونظرنا إلى الشىء الذى يجره فلم نفهم كنهه .. بدا لنا أقرب إلى كيس دقيق ضخم ..

لسنا مسلحين وهو مسلح .. لكن لماذا يحتاج شخص يحمل هذه الملامح إلى سلاح ؟ إنه قادر على فعل ما يريد بنا .. معه سلاح أفتك من القنابل ألا وهو سلاح الخوف ..

فى هذا المكان المقفر وفى قلب صحراء (كالاهارى) يصمم هذا الشىء على أن يدنو منا !

★ ★ ★

على أنه لم يستمر أكثر ..

لقد وقف ينظر لنا برهة ..

ثم استدار مبتعدًا بنفس الحركات المتندة المتخشبة وهو يجر ذلك الكيس ..

ربما كان هذا أملنا .. هذا شخص قادم من مكان ما ..

لكن من يجرؤ على اللحاق به ليسأله عن الطريق .. ليسأله من هو ؟ ليسأله ما هو ؟

لقد ظللنا حيث نحن .. متصلبين نرقبه وهو يصعد الكثبان لينزل وراءها .. وهكذا غاب عن نظرنا تمامًا ..

صاح (فاسيلى) وقد ثاب إلى وعيه :

ـ « هل رأيتم ما رأيت ؟ أنا لم أكن أهلوس ! »

ـ « للأسف رأيناه جميعًا .. وإننى لأتساءل .. هذا لم يكن كائنًا حيًا .. »

صرخت (سيمونيتا) وقد انتابتها الهستيريا :

ـ « هذا شبح من أشباح الصحراء .. لقد رأينا شبحًا من أشباح الصحراء .. شبح مستكشف هلك هنا منذ زمن ! . ربما كان هذا (ليفنجستون) نفسه ! »

راقت لى هذه النظرية ..

الحقيقة أن (ليفنجستون) المستكشف الأسكتلندى الأشهر جاب هذه الصحراء فعلا عام 1849 .. وقد كان يركب عربة تجرها الثيران التى تحمل كميات هائلة من الماء ، قدر أنه يكفيه مائة ميل وهى المسافة التى تفصل بين مصدر مياه وآخر .. كانت تقديراته متفائلة نوعًا واتضح أن الماء غير كاف ، وماتت ثيرانه واستكمل رحلته بمعجزة على القدمين ..

لكن (ليفنجستون) لم يمت هنا وإنما مات على منابع النيل ..

قلت لها :

ـ « لم نسمع عن أشباح مستكشفين من قبل .. دعك من أن (ليفنجستون) لم يمت فى جنوب أفريقيا .. »

هنا قال (فاسيلى) وقد اتسعت عيناه رعبًا :

ـ « لحظة .. هذا الذى كان يجره لم يكن كيسًا ! »

وتلاقت عيوننا وهتفنا فى صوت واحد :

ـ « الطيار !! »

جثة طيار بدين فى الظلام تبدو ككيس ثقيل .. هذا منطقى .. وإن لم أفهم كيف استطاع هذا الشبح المتهالك المتآكل أن يجر جثة ثقيلة كهذه بهذه البساطة ..

جرينا فى الاتجاه الذى اختفى فيه الشبح .. وقفنا نطل على المنخفض الذى نزل فيه فلم نر شيئًا ..

أين ذهب ؟

حقًا لا يمكن العثور على شىء مرة ثانية فى (كالاهارى) هذه ..

عاودت (سيمونيتا) الهستيريا فبدأت تؤدى واجبها كاملاً :

ـ « سوف نموت هنا .. ألم تفهموا هذا ؟ يقتلنا الظمأ أو يقتلنا هذا الشبح ! »

تمنيت أن أصفعها لتهدأ لكن ليس وخطيبها معى ولسوف يصفعنى أنا .. لذا ضغطت على نواجذى وانتظرت .. سوف تهدأ ككل بركان أحمق آخر ..

ـ « ألا تفهمون أننا حكمنا على أنفسنا بالإعدام عندما تركنا الطائرة ؟ »

طاخ !

كانت هذه يد (فاسيلى) التى هوت على خدها .. صفعة ممتازة فعلاً وما كنت لأجرؤ على الإتيان بمثلها .. أقوياء هؤلاء الروس وخشنون حقًا ..

هكذا هدأت وانفجرت فى البكاء ، ثم ارتمت بين ذراعيه .. لقد صار هذا المنظر كلاسيكيًا مملاً .. لو كان هذا فيلمًا لـ (ريتا هيوارث) لوقعت الفتاة فى غرامه بعد الصفعة وقبلته .. القاعدة التى لم أرها تتحقق قط .. كنت أحب ابنة خالتى فى سن العاشرة ، وقد صفعتها صفعة قوية أثناء اللعب متوقعًا أن تحبنى بجنون ، فكانت النتيجة

أنها لكمتنى فى أنفى ، ثم دفنت ركبتها فى معدتى ، ومزقت لحم وجهى بأظفارها كأسد الجبال و ..

ـ « (علاء) !! ماذا سنفعل ؟ »

هكذا عدت إلى الواقع على صوت (فاسيلى) الذى راح يربت على شعر خطيبته وينظر إلى الظلام حيث اختفى المسخ .. كان جنونه قد تصاعد حتى إننى توقعت أنه بحاجة إلى صفعة عما قريب هو الآخر ..

قلت فى غيظ :

ـ « ومن قال لك إننى خبير فى مواجهة الأشباح ؟ لا أعرف إلا أننا سننتظر هنا حتى الفجر ، ثم نتحرك فى ذات الاتجاه الذى ... »

وهنا تذكرت ..

ما هو الاتجاه المقصود ؟

لقد انتهت فلسفة (اتبع الميركات) الشهيرة منذ وقت طويل ..

بدأت فلسفة جديدة هى (امش حيثما شئت .. ولكن ابق حيًا) ..

لا أرى فى جعبتى ما هو أفضل ..

* * *

9ـ نباتات على الأقل ..

ليلة سوداء ..

لك أن تتوقع هذا ..

لابد أننا لم نغف ثلاث دقائق متصلة ، لكن خبراء النوم سيؤكدون أننا نمنا .. إحصائيًا نمنا إن كان هذا يعنيك ..

لم يحدث شىء ذو بال .. يبدو أن هذه الصحراء لا تعج بالذئاب ، أو لعل الأشباح أثارت رعب الذئاب .. لا أدرى بالضبط ..

فقط شعرنا بالشمس تغمر أجسادنا .. شمس محبية صحت لتوها من النوم ولم تتذكر همومها ومشاكلها وتقرر أن تكون شرسة بعد .. إنها ناعسة حنون تتمطى منتشية مبتهجة ..

أمامنا يوم عصيب .. اثنتا عشرة ساعة من الظمأ والحر والاحتراق إلى أن نجد أنفسنا فى الظلام من جديد .. والظلام ليس جنة كما هو واضح ..

قامت (سيمونيتا) بتوزيع الإفطار .. وقمت أنا بتوزيع الماء ..

وليمة فاخرة فعلاً ..

لما انتهينا نظرت إلى الكثبان المترامية وقلت لهما :

ـ « ما رأيكما ؟ هل نواصل فى الاتجاه الذى اختفى فيه ذلك الشبح ؟ »

لم يردا .. نظرت للخلف فوجدتهما متشابكى اليدين متلاصقى الرأسين .. يا للغباء ! لا أطيق الرومانسية فى غير وقتها .. لكن .. ربما كانا يشعران أن هذه هى النهاية .. سوف تتشابك كفاهما ويتحللان ـ بإذن الله ـ إلى عظام .. وعندما يجدهما مستكشف بعد قرون ويحاول فك الكفين يتحولان إلى غبار .. وأنا ؟

صحت مناديًا أن يهبّا .. لقد حان الوقت ..

هكذا واصلنا المشى .. نحو لا مكان ...

★ ★ ★

ـ « ستا كالافريزللا موريرى مى فا .. »

ـ « كالنكا .. كالنكا .. كالنكا »

ـ « يا عزيز عينى وانا بدى أروح بلدى ... »

★ ★ ★

فجأة تغير المنظر كلية ..

هناك مجموعة من النباتات .. نباتات صحراوية لا توحى بوجود ماء لكنها مختلفة على الأقل ..

كانت (سيمونيتا) ذات معرفة بالنباتات ؛ لذا قالت وهى تشير إلى هذه المجموعة :

ـ « هذا نبات (أكاسيا جيرافا) .. أو ما يطلقون عليه شوكة الجمل .. وهذه (بوشيا ألبيترانكا) .. يسمونها شجرة الرعاة ... »

ـ « شوكة الجمل ؟ هل هنا جمال ؟ »

ـ « الجمل ليس من حيوانات (كالاهارى) على الإطلاق .. ما يوجد منه جلبه البريطانيون من مصر فى محاولة لتوليد سلالات منه ، وتم إنشاء محطات لتربية الجمال .. لكن هذا المشروع لم ينجح .. »

كانت النبتة التى أطلقت عليها (شجرة الرعاة) ذات ساق بيضاء جميلة تحيط بها خضرة فاقعة .. تتناقض مع خلفية الكثبان الحمراء والسماء الزرقاء ..

مشهد رائع لو كان بالك رائقًا ..

لو كنت ستلتقط صورة وتبدى انبهارك ثم تعود لدارك لتأكل الزبادى وتنام ..

هناك نموذج آخر للحياة .. تلك السلحفاة الصغيرة التى تتحرك بين الرمال .. سلحفاة صحراوية تبدو كأنها صخرة حية ..

على عكس الجمل الذى يفرط فى شرب الماء ، فإن السلحفاة الصحراوية لم تكتسب سمعة مقاومة الظمأ برغم أنها ـ فعلاـ لا تشرب

على الإطلاق .. إن ما تحتاج له من ماء تحصل عليه من النباتات العصيرية .. وتختزن كميات هائلة منه بالنسبة لحجمها الصغير تبلغ نصف لتر ..

قلت فى انبهار :

ـ « هناك حياة برغم كل شىء .. »

قال (فاسيلى) فى نبرة متشائمة :

ـ « حياة معدة لهذه الظروف .. أما نحن فمعدون لحياة أخرى .. قاع المحيط لا يعنى للبشر سوى الموت ، بينما هو يعج بحياة الأسماك .. »

لكنى كنت أشعر بالتفاؤل .. لعله تأثير اللون الأخضر .. من الصعب أن تتصور أنك ستتحول إلى عظام جافة فى الشمس عندما ترى أمامك كل هذا الجمال ..

سوف يحدث شىء .. أنا أعرف ذلك ..

بالفعل حدث شىء ..

لكنه لم يكن شيئًا بهيجًا لهذا الحد ..

ثلاثة هياكل عظمية ملقاة هنالك بين النباتات ..

ظللنا صامتين نتبادل النظرات .. هذه رسالة بليغة جدًا .. لماذا تعتقد أن مصيرك سيختلف عن الآخرين لمجرد أنك أنت ؟ هناك آخرون جاءوا هنا وحسبوا المكان يعج بالأمل ، ثم اتضح أنهم واهمون ..

رسالة بليغة جدًا ..

وتعنى كذلك أن هذا المكان لا يقود لشىء .. لا توجد واحة قريبة ولا ماء .. لا يوجد شىء ..

هؤلاء جربوا وفشلوا ..

انحنيت أتفحّص الهياكل .. كانت متماسكة لم تتناثر عظامها .. بعضها كان يحدق فى السماء وبعضها كان يمرغ أنفه فى الأرض .. وفى كل الأحوال هى ضحكة الموت الساخرة الشنيعة ..

كانت قاماتهم قصيرة جدًا .. لا أعنى أنهم كانوا أقزامًا لكنهم فى حجم وطول تلميذ المرحلة الإعدادية عندنا .. لكنى وجدت أن الخطوط الكردوسية ملتحمة بما يعنى أنهم بالغون ..

قلت وأنا منهمك فى الفحص :

ـ « قامة قصيرة .. هؤلاء من البوشمن .. »

كنت لم أنس بعد الدروس التى تلقيتها من (أنوابا) عندما كنت راقدًا فى المستشفى أحاول البقاء حيًا بعد العلقة الساخنة التى تلقيتها فى (ديربان) ..

* * *

ـ « من هم أولئك القوم قصيرو القامة الذين لهم وجوه الثعالب ؟ إنهم منتشرون فى (ديربان) بشدة .. »

قالت ضاحكة :

ـ « أنت تتكلم عن قبائل (البوشمن Bushmen) .. لم يعودوا كما كانوا فى الماضى .. إنهم قصيرو القامة فعلاً ولهم وجوه ثعلبية مثلثة .. آذانهم لا شحمة لها .. كانت مجتمعاتهم قاسية جداً ، فهم لا يعترفون بالروابط الزوجية ويلقون شيوخهم لبنات آوى .. ليس عندهم عد لأكثر من أربعة .. لغتهم لا تتجاوز 63 كلمة .. كنت تراهم يحملون جرة بها خمرهم المصنوعة من العسل ، وحول خصر الواحد منهم بيضتا نعام مليئتان بالماء على سبيل الزمزمية .. طعامهم هو الحشرات والجذور .. »

ـ « إذن هم أكثر البدائيين بدائية ... »

ـ « هم كذلك يا دكتور .. هم كذلك .. »

★ ★ ★

أين أنت يا (أونوابا) ؟

هل كنت حلمًا رأيته ثم تلاشى ؟

★ ★ ★

هؤلاء الموتى إذن من البوشمن .. رجال الأحراش لو ترجمت اسمهم إلى العربية ..

قربهم تناثرت أجسام طويلة أسطوانية حسبتها رماحًا فى البداية ، ثم عرفت أنها قصبات جوفاء .. قصبات كالتى يستعملونها فى الشرب ..

كانوا يفتشون عن الماء تحت الأرض كدأبهم ، لكنهم لم يجدوا شيئًا ..

قلت للطبيبين وأنا حائر :

ـ « لم يجدوا ماء فهلكوا .. »

قالت (سيمونيتا) :

ـ « مستحيل .. »

ـ « ما هو المستحيل ؟ »

ـ « البوشمن لا يفشلون أبدًا فى العثور على الماء ... »

قال (فاسيلى) وقد بدت عليه معالم ذكاء بعث فجأة :

ـ « لاحظ أن الأربطة لم تتحلل .. هناك أنسجة طرية .. لو كانوا قد هلكوا وجففتهم الشمس والتهمت الوحوش ما تبقى منهم لتآكلت كل هذه الأربطة .. »

ـ « لا أفهم ما تعنيه .. »

قال فى قلق :

ـ « أتكلم عن قتل .. هؤلاء مقتولون !! »

ـ « يا سلام ! فلماذا لا أرى طلقات رصاص هشمت بعض العظام ؟ »

ـ « الناس تموت بالشنق والخنق والسم والطعن .. كل هذه أشياء لا تترك أثرًا على العظام إلا فيما ندر .. تحتاج إلى خبرة طبيب شرعى كى يعرف أداة القتل ، لكنه يجدها على كل حال .. »

تفحصت الهياكل وبدا لى الأمر معقولاً ..

(بوشمن) هلكوا أثناء البحث عن الماء .. ربما طعنًا ..

لكن من العسير فعلاً أن يموت البوشمن لأنه لم يجد ماء فى الصحراء .. هذا يدل على (بوشمن) غبى أو أحمق ، وعلى قدر علمى لا يوجد بين هؤلاء البدائيين أغبياء .. كأن الغباء مرض اختصت به المدنية أبناءها .. فقط نحن امتلأت شرايين مخنا بالكولستيرول والدهون ، وضاق فهمنا للحياة .. انسدت أنوفنا ووهنت عضلاتنا وشحبت جلودنا ..

إذن هؤلاء ماتوا أثناء بحثهم عن الماء .. ماتوا بشكل ما لا أعرفه ..

لكن هناك نقطة مهمة :

ـ « هل تعتقدان أنهم ماتوا منذ زمن ؟ »

ـ « الأربطة ما زالت طرية .. »

ـ « هذا يعنى أن الوفاة حدثت منذ أيام أو ساعات .. فلماذا تجردت العظام من العضلات والأحشاء ؟ الجوارح لا تتصرف بهذه الكفاءة .. »

ـ « لأن هناك من فعل ذلك ! »

ـ « تريدان القول إن هناك من يقتل البوشمن وينزع اللحم عن عظامهم ؟ »

كل شىء يشير إلى أن هناك خطرًا داهمًا ..

خطرًا لا أعرف كنهه لكنه يحدق فينا .. ينتظرنا خلف كل كثيب ..

★ ★ ★

10 ـ بوشمن ..

يوم نموت سيمحو النسيم الرقيق آثار أقدامنا على الرمال ..

بعد ما يفنى النسيم ، ترى من يخبر الأبدية أننا مشينا هاهنا مرة فى فجر الزمان ؟

أغنية حقيقية لقبائل البوشمن

* * *

العقارب .. العقارب فى كل مكان ..

كلها تطلق صوتًا هو مزيج من فحيح واحتكاك .. تتحرك .. تتكاثر .. تغمر الوديان ... وعلينا أن نجتاز هذا السهل ...

الهرب ! لا سبيل للهرب لأن الرمال تعوق الفرار .. العقارب .. سوف تلتف حولك .. وتتسلق ساقك .. سوف تحاول أن تتخلص من بعضها بلا جدوى .. سوف تسحق اثنين فيتسلق سراويلك ثلاثة .. عندها لن تشعر سوى باللدغة ... لدغات .. مئات منها ..

لكن (مارثا) تظهر فى الأفق .. سوف تنقذنا ..

إنها تلبس ثيابًا غريبة تذكرك بالكاهنات الوثنيات .. على صدرها مئات العقارب تتزاحم لكنها لا تؤذيها ، وهى تحمل عصا غريبة الشكل ..

ـ « نعم يا فتيان .. أنا هى ملكة العقارب ! كان عليكم أن تتوقعوا ذلك ! »

تنفجر فى الضحك .. وأنت تغوص بلا انقطاع فى الأرض ..

تفتح عينك صارخًا .. لكن ..

أنت تمشى .. أنت تمشى فى الصحراء ..

كان هذا كابوسًا .. ومنذ متى تأتى الكوابيس لشخص يمشى ؟ معنى هذا أنها هلاوس .. أنا أهلوس .. لقد أذابت الشمس وأذاب الظمأ مخى ..

خلايا مخى قد فقدت ما فيها من ماء ، وانكمشت .. الصوديوم غادر مسامى .. لابد أن دمى تحول لمادة لزجة تذكرك بالعدس .. عدس أحمر لزج ..

أنظر للآخرين فأجد كل واحد منهما فى عالمه الخاص .. لم يكف عن المشى لكنه يحلم كما هو واضح ...

* * *

ـ « موريرى مى فا .. »

ـ « يا كالنكا عينى .. وانا نفسى أروح مى فا .. »

ـ « ستا كالافريزللا أخذت ولدى .. »

* * *

ثمة شىء غريب ...

أرى حشرة تحلق أمامنا مبتعدة ..

أغرب حشرة رأيتها فى حياتى .. حشرة لها ريش ! أحب الهلوسة التى يعرف صاحبها أنها هلوسة .. إنها تكون خلاقة حقًا ..

هلوسة جميلة جدًا ..

رحت أتابع الحشرة ذات الريش بعينى وهى تحلق ..

ثم تذكرت أننى قرأت شيئًا كهذا يومًا ما ..

صحت فى (فاسيلى) والإيطالية :

ـ « لاحقا هذه الحشرة ! لا تتركاها ! »

لأننى كنت أعرف أننى سأجرى وأنا أنظر لأعلى من ثم أتعثر وأسقط على فكى ، وحينما أنهض ـ كالعادة ـ تكون قد توارت .. أنت لا ترى الشىء مرتين فى (كالاهارى) أبدًا ..

هتف (فاسيلى) وهو يحرك أنامله جوار صدغه فى حركة واضحة المعنى :

ـ « (علاء) .. نحن كذلك نخرف لكننا لا نسمح للهلاوس أن تبرز إلى السطح ... »

ـ « كف عن الفلسفة ونفذ ما أقول ! »

وهتفت (سيمونيتا) :

ـ « هذه ليست حشرة .. أعتقد أنها طائر السكرتير الذى يملأ كالاهارى .. إنه يبدو كسكرتير متأنق له عوينات ويدس قلمًا خلف أذنه .. ربما ... »

صحت فى غيظ :

ـ « طائر ؟ هذه حشرة .. لها شكل حشرة وفى حجم حشرة .. إذن هى حشرة .. أى مخبول يعرف ذلك ! كفى عن التحذلق واتبعيها معى ! »

هكذا رحنا نركض وراء الحشرة ..

كانت غير متعجلة .. ترتفع ثم تهبط .. تعلو ثم تنخفض .. ووجدت نفسى أدندن بأغنية (نيللى) التى لم أسمعها منذ عشرين عامًا : « كان فيه فراشة صغننتة .. لابسة بلوزة منقطة .. على جونلة مخططة .. » أدندن بصوت لاهث متقطع الأنفاس ..

بالفعل تعثرت ألف مرة .. وسقطت على كتفى وتخلل الرمل الأحمر لحيتى .. لكن كان هناك واحد منا دومًا يظل على قدميه ليواصل الركض إلى أن ينهض الآخران ، من ثم يسقط هو على فكه ..

أخيرًا نرتمى على بطوننا فوق كثيب عال ، وننظر إلى المشهد أمامنا ..

هناك مجموعة من النباتات وسط الصحراء .. أيكة صغيرة .. والحشرة ذات الريش تهبط فوق تلك الأيكة .. تتوارى داخلها ..

قلت لاهثًا لـ (فاسيلى) :

ـ « قرأت فى مكان ما فى زمن ما أن قبائل البوشمان تبحث عن العسل بهذه الطريقة .. يقتنص الصياد نحلة فيربط ريشة إلى جسمها تثقلها وتجعلها مميزة واضحة للعين ، ثم يقتفى أثرها إلى أن يصل للخلية التى جاءت منها .. »

قال فى دهشة :

ـ « هل تعنى أن هذه نحلة ؟ »

ـ « نعم .. نحلة تم وضع علامة عليها كما يفعل علماء الأحياء فى هارفارد .. معنى هذا أن الصياد قريب ، وعلى الأرجح سيصل الآن ! »

ـ « وهل ..؟ »

مططت شفتى بما يعنى أننى لا أعرف .. هل هم مسالمون ؟ المفروض أن الجواب نعم لكن أى شىء طبيعى قابلنا فى هذه الرحلة المنحوسة ؟

سمعت صوت اللهاث ..

رفعنا عيوننا لنرى أول (بوشمان) حى نقابله فى هذه الصحراء ..

★ ★ ★

كان قصير القامة عاريًا تقريبًا .. له تلك الأذنان المميزتان اللتان لا شحمة لهما .. وكان له شارب رفيع وهو شىء نادر لدى البدائيين على ما أعتقد ..

جسده مغطى بالتراب ومادة براقة ما .. فيما بعد سأعرف أنهم يدهنون أجسادهم بالزيت ثم يخلطونه بالتراب كى يتقوا ذباب الصحراء .. لابد أنهم تعلموا هذا الأسلوب من الأفيال برغم أنه لا توجد أفيال هنا ..

وكان يحمل فى يده ما يشبه الرمح .. ومن حزامه يتدلى ما يشبه البوميرانج لدى الأستراليين .. أما أهم ما يحمله فهو تلك القصبة الطويلة .. القصبة التى يجدون بها الماء ..

حول خصره حزام يتدلى منه بيض .. بيض بهذا الحجم لا يمكن إلا أن يكون بيض نعام ..

رأيته يتجه نحو الأشجار .. يزيحها .. لابد أنه وجد الخلية ..

خلية عسل برى لا أعرف كيف سيتعامل معها بعد ذلك .. أن تفتح خلية نحل وأنت شبه عار أمر لا يمكن تخيله ..

لكننا لم نتركه يفعل ..

لقد برزنا من مكاننا ولوّحنا بأيدينا ..أطلقنا كل صرخات السلام الممكنة لو كانت للسلام صرخات ..

وهرعنا نحوه ونحن نتصايح :

ـ « ساعدنا ! نحن ضائعون .. »

لكنه كان أكثر بدائية مما توقعنا ..

لقد تراجع إلى الخلف .. وللمرة الأولى أدرك أنه يحمل قوسًا وسهامًا .. سهام البوشمن مسمومة دائمًا بالمناسبة ..

لقد جرد السهم وثبته إلى الوتر ، وسرعان ما كان يصوبه نحونا !

* * *

11ـ ضيوف ..

لم نعرف ما نفعله ..

كان الحل الوحيد الذى وصلنا له هو أن نرتمى على ركبنا .. كيف يمكن أن تقنع رجلاً بأنك مسالم من دون استعمال كلمات ؟ حتى العلم الأبيض لا جدوى منه هنا ..

ظل يرمقنا بوجهه الكالح لدقائق ..

لا أعرف ما يفكر فيه لكن يده متوترة على الوتر تمامًا .. يكفى أن يخدشنا هذا السهم ..

همس (فاسيلى) :

ـ « ماذا يفعله بالضبط ؟ »

أمرته همسًا أن يخرس ..

بعد لحظات رأيت الرجل يستدير ويبتعد .. يبتعد فى تؤدة ودون أن ينظر للخلف .. ثم توقف .. نظر لنا وواصل الابتعاد ..

همست للخطيبين :

ـ « أعتقد أنه يدعونا للذهاب خلفه .. أعتقد هذا ولست مسئولاً عما سيحدث لو كنت حمارًا ! »

قالت (سيمونيتا) وهى تنهض من الرمال :

ـ « لا تخف .. لن نتمكن من لومك ونحن فى قدر الطهى .. لا أرى أمامنا أى خيار سوى أن نتبعه .. » .

هكذا نهضنا متثاقلين ومشينا خلفه ..

مع الوقت بدأت أقدر أنه بالفعل يرغب فى أن نقتفى أثره .. يستطيع أن يرمح وسط الرمال وما كنا لنلحق به أبدًا ...

يريد أن نقتفى أثره .. هل هو كمين ؟

ربما ..

نحن لا نملك أى خيار ..

★ ★ ★

« كان فيه فراشة صغنتتة .. لابسة بلوزة منقطة .. على جونلة مخططة .. »

★ ★ ★

لابد أننا مشينا نصف ساعة ..

هؤلاء القوم لا يتعبون ولا يشعرون بالإرهاق ..

ثم رأينا ذلك الكوخ المصنوع من ألياف المجدولة .. لا توجد واحة .. لا يوجد نهر قريب .. مجرد كوخ يقف وحده جوار مجموعة من تلك النباتات التى ذكرت (سيمونيتا) اسمها ونسيته ..

من الواضح أننا مدعوون إلى كوخ هذا الصياد .. هذا يدل على أن هؤلاء القوم ليسوا شرسين جدًا ..

خارج الكوخ كانت امرأة تشبهه .. فى الواقع كان هو أكثر جمالاً ورقة منها .. وكانت تحمل طفلاً رضيعًا تلقمه صدرها فى لا مبالاة ..

أما الأغرب فهو أن هناك ثلاث نعامات مربوطة بحبال فى أعناقها تربض على الأرض أو تلتقط شيئًا من الأرض كأنها الدجاج ..

فيما بعد عرفت أن النعام منتشر هنا جدًا ، وأن بيضه ولحمه من الموارد الغذائية المهمة ..

قال (فاسيلى) وهو مبهور الأنفاس :

ـ « لا توجد قبيلة .. لا توجد قرية .. هل لاحظت هذا ؟ البوشمن بدائيون جدًا لدرجة أن وحدتهم هى الأسرة وليست القبيلة .. »

قالت (سيمونيتا) :

ـ « هم كذلك دائمو الارتحال .. لا يستقرون فى مكان ؛ لذا لا يحملون أى متاع تقريبًا .. »

جلسنا على الرمال .. لا نعرف إن كان قال لامرأته إننا ضيوف على العشاء أم إننا العشاء نفسه ، لكنها على كل حال ذهبت لتحفر فى الرمل ، وأخرجت ثلاث بيضات عملاقة .. قدمتها لنا ..

كان البيض مثقوبًا وأدركت أنه يستخدم كآنية ماء .. هناك ثقب آخر يسمح بدخول الهواء كما تغرس الممرضات إبرة فى زجاجة المحلول ليتدفق من الفتحة الرئيسة ..

هتفت (سيمونيتا) فى اشمئزاز :

ـ « أليس هذا هو الماء الذى يشفطونه من تحت الأرض ؟ بفمهم ؟ عن طريق تلك الماصة ؟ »

اقشعررت للفكرة .. تبًا لك ! لماذا لم تنتظرى حتى أروى ظمئى ثم تقولى هذه الملحوظة العبقرية ؟

ثم قدرت الموقف .. سأفرض أن هذا ليس صحيحًا .. إن الظمأ يقتلنى فعلاً ..

هكذا شربت ..

وحينما انتهيت من الشرب رفعت عينى فوجدت (سيمونيتا) تفعل الشىء ذاته ..

الرجل فى جدل طويل مع امرأته .. ومن الغريب أنها لغة مليئة بأصوات الطرقعة .. سمعتها فى كل مكان منذ جئت إلى جنوب أفريقيا ..

ومن الأغرب أن هذه الطرقعات تُكتب ! نعم .. لا مزاح هنا .. إنهم يكتبونها ضمن الحروف اللاتينية .. سأقطع سياق القصة لحظة لأشرح لك تلك الرموز ..

/ هى طرقعة غير مسموعة تصدر من الأسنان تشبه صوت (توت توت) الذى نستنكر به شيئًا بشعًا .. أو نزجر به طفلاً مزعجًا ..

! طرقعة على سقف الفم باللسان ..

// طرقعة جانبية كصوت فتح الزجاجة ..

جرب أن تنطق كلمة مكتوبة مثل Kung! أو Kwe/ .. ليس الأمر سهلاً !!

هكذا كان الرجل يتكلم مع امرأته ..

ثم رأيته يحمل الرمح ويشير لنا .. تبادلنا النظرات ..

ماذا يريد منا هذه المرة ؟ لحسن الحظ أن حفاوته انتهت قبل الغداء .. لا أشتهى أن أعرف ما يتكون منه طعامهم ..

كل ما أريده هو أن يخبرنا هذا الرجل بالمكان الذى نقابل فيه غربيين أو أفارقة يفهمون لغتنا أو أقرب مدينة .. لكن كيف يمكن أن أشرح له كل هذا ؟

فهمنا أنه يريد أن نتبعه ..

تبًا ! مشـوار آخر فى هذا القيظ .. وإلى أين ؟ لا يمكن أن يقتادنا لقريته لأنه كما فهمت لا توجد لـه قريـة .. لا أعتقد أنـه يقتادنا إلى الجناح المخصص لنا فى هيلتون كالاهارى ..

على كل حال لم نجد بدًا من المشى خلفـه .. ومن جديد طـالت المسيرة إلى حد لا يصدق ..

وكل هذا من أجل أى شىء ؟

إن الجنة الموعودة التى كان يقصدها لم تكن الهيلتون .. كانت كوخًا تعسًا آخر حوله مجموعة من النسـوة والأطفـال يلعبـون .. والنعام .. دائمًا النعام ..

حقًا كان (فاسيلى) دقيقًا عندما قال إن وحدة (البوشمن) هى الأسرة .. واضح أننا لن نسمع عن شىء اسـمه (رئيس قبيلـة) أو (عمدة) أو (زعيم) هنا ..

أشار لنا رجل البوشمن كى نلحق به ودخل الكوخ ..

توكلت على الله واسترقت النظر داخله .. لابـد من أن تنحنى لأن قامة هؤلاء القوم القصيرة جعلتهم يحسبون أن الحياة خلقـت لقصار القامة ..

كان شعاع الشمس يتسرب من السقف ليسقط على الجسد الراقد على الأرض وسط قذارة لا توصف .. الجسد الذى جلس جواره الرجل محتبيًا ينظر لى متوقعًا أن أفهم ..

دنوت أكثر لأعرف من هذا .. ثم أطلقت شهقة ذهول ..

بالطبع كانت هذه (مارثا) !

* * *

12 ـ مارثا من جديد ..

كانت راقدة على ظهرها .. فى غيبوبة تقريبًا ..

واضح أنها لم تمر بخبرات طيبة .. تعرف هذا من ثيابها المبعثرة الممزقة عند الكتفين ، وشعرها المهمل والجفنين المنتفخين والشفتين الجافتين ..

تحسست نبضها فوجدته منتظمًا نوعًا .. لا أعتقد أن هناك جراحًا فى جسدها ، لكنها فى حال سيئة برغم كل شىء ..

كانت تهمس مغمضة العينين .. دنوت منها أكثر لأسمع فترددت فى أذنى كلمات :

ـ « رجل الرمال .. رجل الرمال ! »

الأمر واضح إذن .. لقد هاجمها رجل رمال .. هذا يفسر كل شىء .. إن رجال الرمال منتشرون هذه الأيام ..

رِجل الرمال لفظ شائع فى الحضارة الغربية ، والمراد به ذلك الجنى الذى يقذف الرمل فى عيون الأطفال ليناموا .. أحيانًا يعنون به الرجل الذى تستأجره الشرطة للبحث عن مجرم وقتله .. يصعب تخيل أنها تقصد أيًا من المعنيين .

ركعت (سيمونيتا) جوار الفتاة .. لقد صار دورها محددًا لأنها الفتاة الوحيدة هنا ..

خرجت مع (فاسيلى) ووقفنا خارج الكوخ ننشق الهواء النقى .. وقفنا نراقب الأسرة الصغيرة .. ثم سألته :

ـ « ما رأيك ؟ »

ـ « مثل رأيك .. كيف جاءت هنا ؟ »

ساد الصمت ثم قال بعد برهة :

ـ « لا جدوى من محاولة الفهم .. لابد من أن تستعيد وعيها أولاً وسوف تحكى كل شىء .. »

هكذا جلسنا على الرمال كأننا من هؤلاء البوشمن .. لا جدوى من عمل أى شىء إلا الانتظار وشرب المزيد من بيض النعام ... يبدو أننى سأعود للمدنية معتادًا الشرب من هذا البيض كما يفعل الآخرون مع علب المياه الغازية ..

الانتظار مملٌ قاتل .. لكن على الأقل هناك ماء وظل ونباتات ..

هناك حياة ..

★ ★ ★

« كان فيه فراشة صغنتنة .. لابسة بلوزة منقطة .. على جونلة مخططة .. »

★ ★ ★

عند المساء ظهرت (سيمونيتا) وجلست جوارنا على الرمال ..

ثمة شىء من الشجن فى هذا الجو .. خاصة وهى جالسة فى الظلام لا ترى وجهها .. فقط تدرك أنها منهكة ..

بعد قليل قالت بصوت مبحوح :

ـ « لا أعتقد أن هناك شيئًا خطيرًا .. هو مزيج من الإنهاك والصدمة العصبية .. »

سألتها فى لهفة :

ـ « إذن لم تعرفى كيف جاءت هنا ؟ »

ـ « الأمر واضح .. البوشمن وجدوها فى الصحراء وجاءوا بها .. هذه قصة لا تحتاج إلى كلمات .. السؤال الحقيقى هو : كيف اختفت من الطائرة .. والسؤال الأهم هو ماذا حدث لها ؟ »

وساد الصمت ..

أخرجت بعض البسكويت من جيبها ووزعته علينا .. لم يتغير نظامنا الغذائى وإن استجد عليه الماء .. يمكنك أن تقاوم الجوع لفترة لا بأس بها عندما لا تكون ظمآن .. وهؤلاء البوشمن لم يعرضوا علينا طعامًا ولا أعتقد أننى كنت سأقبل .. أنا لم ألق التوركانا ولكنى قرأت وصف مديرى فى (كينيا) عن مغامرته معهم ، وأعتقد أن هؤلاء أكثر بدائية .. لن يزيد الطعام على سحلية مسلوقة ..

رحنا نأكل فى صمت ..

هنا رأينا منظرًا لا يصدق ..

رأينا أحد هؤلاء الأطفال يقترب منا وكأننا لا وجود لنا .. راح يعبث فى الرمال بأظفاره بعض الوقت ، وفى النهاية استطاع أن يستخرج شيئًا ..

على ضوء النيران الخافت أدركنا أنه ضفدع منتفخ البطن بشكل لا يصدق .. كان يقاوم محاولاً التملص لكن الطفل مد يده بحنكة وانتزع الرأس كأنه ينزع غطاء زجاجة .. ثم رفع الضفدع إلى فمه وشرب !

وسرعان ما تخلص من الضفدع الفارغ وانصرف !

لك أن تتصور منظرنا بعد هذا ! . لولا أننا رأينا المشهد معًا لحسبت أننى أهذى !

قالت (سيمونيتا) التى كانت أكثرنا علمًا بعادات القبائل :

ـ « ضفدع الصحراء الذى يختزن كميات هائلة من الماء .. هذا كائن لا يشرب تقريبًا ، لكنه يحصل على الماء من الحشرات ويختزنه فى بطنه .. يعرف صيادو البوشمن كيف يجدونه .. والعثور على واحد منه يشبه العثور على كوب ماء ! واضح أن هذا الطفل اكتسب هذه الخبرات .. »

تقلَّصت أمعائى ! يبدو أن الاشمئزاز كلمة لا وجود لها فى قاموس هؤلاء .. الظروف القاسية تستدعى طرقًا غير تقليدية للتعامل معها ...

لن آكل هنا ! أقسم بالله إننى لن آكل !

قال (فاسيلى) بعد ما تجشأ مرتين :

ـ « هل تعرف ما أفكر فيه ؟ فعلاً من المستحيل أن يموت البوشمن من الظمأ .. إن هؤلاء الذين وجدنا جثثهم قتلوا فعلاً .. »

عدت أسأل (سيمونيتا) :

ـ « متى تتكلم الفتاة ؟ »

ـ « لا أعرف .. ربما غدًا .. إنها تستعيد قواها لا شك فى هذا .. »

ـ « أعتقد أنها تعرف الكثير .. »

ـ « لندع الله أن يكون هذا صحيحًا .. ولندع الله أن تكون عالمة بلغة البوشمن .. »

ورحنا نتأمل الرمال صامتين ..

★ ★ ★

فى العاشرة مساء ظهر رجل البوشمن الذى رأيناه أول مرة .. مطارد النحل كما اتفقنا على تسميته ، وهو اسم راق لى لأنه ذكرنى باسم (مراقب القمر) فى رواية (أوديسة الفضاء) لـ (آرثر كلارك) ..

جاءنا وراح يشير إلى الكوخ .. ويقول كلامًا كثيرًا لم نفهمه .. كان يصرخ ويتكلم بعصبية .. طبعًا من المستحيل أن نفهم ..

ـ « أعتقد أنه يريد أن ندخل الكوخ .. »

ـ « والسبب ؟ »

ـ « لا أعرف .. لكن من الخير ألا نغضبه .. »

هكذا نهضنا واتجهنا إلى الكوخ كريه الرائحة ، وجلسنا على الأرض جوار الفتاة الراقدة .. فقط اختلست نظرة للخارج فوجدت أن الرجل يدفع النساء والأطفال من الأسرة للحاق بنا ..

هكذا تحول الكوخ المظلم إلى حافلة مصرية فى ساعة الذروة ..

ونظرت للخارج فوجدت الرجل قد أدار ظهره لنا ووقف تلك الوقفة الغريبة .. وقفة البوشمن المميزة التى يبدو أن قبائل أستراليا تقف مثلها كذلك .. يقف وقد ثنى رجلاً وأراح قدمها على ساق القدم الأخرى .. وضع متعب جدًا لا يوحى بالاتزان ، لكنهم يقفون ساعات كاملة بهذا الشكل .. كأنه طائر اللقلق ..

ونظرت على بعد أمتار فوجدت رجلاً آخر يقف بذات الطريقة ..

هذا نوع من الحراسة .. هذان الرجلان خائفان .. هذا واضح ..

لقد وضعونا فى الكوخ لحمايتنا .. نحن والنساء والأطفال .. من الواضح أنهم يعتبرون الرجال فاتحى البشرة نوعًا من النساء ..

لماذا ؟ ما الخطر الذى يتهددهم ؟

جاءت الإجابة من وراء ظهرى ، عندما همست (مارثا) من بين شفتيها الجافتين :

ـ « رجل الرمال ! رجل الرمال ! »

★ ★ ★

13 ـ رجل الرمال ..

غبت عن الوعى فى الواحدة صباحًا ..

نعم غبت عن الوعى بالمعنى الحرفى للكلمة ، ولكن من فعل الإرهاق والسهر وليلة أمس السوداء .. لم أحلم .. حتى أجهزة الحلم عندى كانت مرهقة عاجزة عن إنتاج أى شىء محترم ..

ثم شعرت بأن هناك من يقتلع رأسى على سبيل المزاح .

فتحت عينى متذمرًا لأن الطريقة الصحيحة لفك رأسى هى أن تديره على محوره عكس عقارب الساعة و ...

وجدت أن هذا الذى يوقظنى بخشونة هو (فاسيلى) .. ووجدت هرجًا ومرجًا .. هناك كارثة ..

نهضت مذعورًا إلى الخلاء فى الخارج .. كانت هناك فوضى عامة من النعام والكلاب التى تنبح وأشياء غريبة ..

وجدت رجل البوشمن (مطارد النحل) جاثيًا على ركبته ، وهو يعتصر رأسه .. كان يتحرك حركة سريعة للأمام والخلف ولا يكف عن العويل ..

هنالك جوار اللهب المحتضر يبدو كأنه تمثال عبقرى نحته (رودان) اسمه (اللوعة) ..

لم أفهم ما هى المشكلة .. هناك كارثة لكنى لا أفهم ما هى .. بالمناسبة : كان هناك رجلان على ما أذكر .. أين الآخر ؟

وجدت النساء ـ حوالى ثلاثة منهن ـ يصرخن ويشرن نحو الهضاب القريبة ..

دنا منى (فاسيلى) وربت على كتفى وهمس :

ـ « لقد أخذه ! ونحن نيام .. أعتقد أن زميله نام ثم صحا ليجد الموقف كذا .. »

قلت فى حيرة :

ـ « من أخذه ؟ »

قال لاهثًا :

ـ « لا أعرف .. لكن لو حكمنا على هلوسة الفتاة (مارثا) لقلنا بلا خوف إنه رجل الرمال ! »

هذا الهراء الذى يذكرنى بـ (أبو رجل مسلوخة) .. رأيت الكثير فى أفريقيا وأعرف أن هناك أشياء كثيرة لا يمكن أن تراها أو تسمعها أو تشمها أو تحسها أو تلمسها .. لكن رنين القصة يبدو لى كأنه (أبو رجل مسلوخة) فعلاً .. لو لم تسمع كلام ماما لجاء رجل الرمال ليأخذك ..

ـ « كف عن هذا السخف ! »

طوق كتف (سيمونيتا) التى وقفت جواره ترتجف .. كانت مصدومة تمامًا شأن من يصحو عاجزًا عن فهم من هو ولا ماذا يحدث .. أضف لهذا تأثير البرد القارس ..

قال لى :

ـ « أنت تعرف أننا قابلنا شيئًا مخيفًا فى الصحراء ليلاً .. تعرف أنه هو من فتك بالطيار على الأرجح .. تعرف أنه هو من جرد البوشمن من لحمهم وترك العظام .. تعرف أنه موجود فى كل مكان من حولنا .. من هو هذا الشخص ؟ لماذا تهذى (مارثا) مرددة اسم (رجل الرمال) ؟ لماذا بدأت نوبة الحراسة هذه ؟ ما الذى يخشونه ؟ »

قلت فى عناد :

ـ « ربما اختطفه أسد أو نمر .. »

ضحك طويلاً وقال :

ـ « هناك أسد يعرف باسم (أسد كالاهارى) لكنه أسد أبله صغير الحجم ، ولا أعتقد أنه يجرؤ على مهاجمة البوشمن .. هناك (شيتا) .. لكنها لا تفعل أى شىء إلا الفرار من السيارات .. السياح يأتون ليطاردوها بسياراتهم كى يروا ما إذا كانت فعلاً أسرع كائن على ظهر الأرض كما يقال أم لا .. طبعًا لا توجد نمور فى جنوب أفريقيا .. باختصار .. ما لم يختطفك بشر فأنت تبقى حيث أنت للأبد ! »

نظرت إلى مشهد المأساة أمامى ..

تدريجيًا أشعر بأننى أصدق هذا كله ..

رجل الرمال جاء ليلاً .. وأخذ أحد الرجلين .. يمكن القول إن أمره انتهى ما دام الآخر بيدى كل هذا الجزع .. لابد أنه يعرف ما حدث له ... وبما أن الأسرة هى وحدة البوشمن فمن السهل أن نفرض أن المختفى أخوه ..

وجلسنا على الرمال فلم يعترض أحد ..

على قدر تقديرى للأمور لن تحدث هجمات أخرى هذه الليلة ..

هكذا سمحنا لعيوننا المنهكة بأن تغلق .. لقد انتقلنا إلى عالم بلا أحلام ..

★ ★ ★

فى الصباح جاءت (سيمونيتا) وهى متحمسة تكاد ترقص طربًا ..

ـ « خمن من هنا ؟ »

لن تكون خالتى بالتأكيد .. لهذا نظرت إلى ما خلف كتفها ..

فوجئت بـ (مارثا) تخرج من باب الكوخ مترنحة واهنة .. لكنها حية ترزق قادرة على المشى ..

كان أول شىء قالته هو :

ـ « لو دعوتكم مرة أخرى إلى رحلة لرؤية (أوكافنجو) فلترمونى بالرصاص كالكلاب المسعورة .. »

ـ « سنتذكر هذا .. »

جلست على الرمال ، على حين جاءتها إحدى النساء بإناء من الفخار فيه عجين يثير الاشمئزاز فى النفس ، لكنها دست أناملها وراحت تأكل منه ، ولم تنس أن تكلم امرأة بلغة مليئة بالطرقعات .. حمدًا لله .. إنها تتكلم لغة البوشمن فعلاً !

لما انتهت من طعامها سألتها فى لهفة :

ـ « أين كنت وكيف وصلت هنا ؟ »

ظلت تحملق فى الفراغ بعض الوقت ، ثم قالت :

ـ « لا أذكر إلا ما حكوه لى .. »

معنى هذا أنها لم تكن غائبة عن الرشد طيلة الوقت ..

ـ « كنت أفيق ثم أعود لهذه الغيبوبة .. ربما كان الارتجاج وربما كانت صدمة عصبية .. لا أعرف حقًا .. »

اعتمدت (سيمونيتا) بذقنها على ركبتها وعادت تسأل :

ـ « وماذا حكوه لك ؟ »

هل ستكذب ؟

لا أعرف .. يقولون إن الشخص الذى سيكذب يفرك أرنبة أنفه أو يضيق عينه للحظة .. لم تفعل شيئًا من هذا .. فقط قالت :

ـ « قالوا إنهم وجدونى قرب هـذا المكان .. كنت غائبة عن الوعى .. يعتقدون أن الكابتن (سميث) هو من جاء بى .. وأنـه كان سيفتك بى ... »

كابتن (سميث) ؟

★ ★ ★

الملامح العامة له توحى برجل أوروبى ملتح يلبس ثيابًا خاكيـة ممزقة وفـى يده بندقية .. الشكل المصطلح عليه للصيادين أو المستكشفين .. وكان يجر وراءه شيئًا ما ..

لكنه كان مسخًا ..

أقولها وأنا أطرق برأسى حياء ، فلسـت مـن هـذا الطـراز الهستيرى الذى يرى الأشباح فـى كل ركـن .. كـان شيئًا مشوهًا تآكل أكثر وجهه .. بـرز نصف الجمجمـة .. اليد القابضـة علـى السلاح أيضًا لم تكن على ما يرام .. كانت عظمية تمامًا ..

عيناه لم تمسا .. وكانتا جمرتين من نار كعينى أى نمر مهيب ..

★ ★ ★

لسبب مـا شعرت أن هذا الكـابتن سميث يمت بصلـة للمسخ الذى رأيناه ..

ـ « الكابتن (سميث) ؟ »

نظرت لنا بعينين زائغتين ثم قالت ..

★ ★ ★

14ـ روبين هود (ليس تمامًا) ..

لم يكن هذا هو اسمه الحقيقى ..

كان اسمه الأصلى (جورج ليجر لينوكس) لكن العالم اليوم يعرفه باسم (سكوتى سميث) .. (سكوتى) تدل طبعًا على أصله الأسكتلندى ..

(سكوتى سميث) هو ـ مع بعض الاختلاف ـ (روبين هود) جنوب أفريقيا .. (روبين) كان يعيش فى أحراش (شيروود) أما هذا فكان يعيش بين كثبان (كالاهارى) ..

إنه المتمرد الأبدى على القانون ، وبرغم هذا تبعث سيرته بعض الإعجاب فى النفوس ، خاصة ما إذا كانت السلطة قمعية ظالمة ..

تذكر (روب روى) فى إيرلندا .. تذكر (ويليام والاس) فى سكوتلندا و(روبين هود) فى إنجلترا .. وتذكر (ند كيلى) فى أستراليا .. تذكر (أدهم الشرقاوى) فى مصر .. وتذكر فرسان العرب الصعاليك .. تذكر (عبد الله النديم) الهارب طيلة الوقت ، الذى تطالب السلطة برأسه فى كل مكان وزمان ..

متمرد على حياته منذ اللحظة الأولى .. إنه من الطراز الذى لا يستطيع التخلص من شيطانه .. متمرد على المستقبل المرسوم له بإحكام .. متمرد على الفتاة التى اختارها له أبوه كى يتزوجها ..

متمرد على نفسه ...

هكذا فر (سكوتى سميث) من أسرته ..

وما أكثر الأماكن التى كان بوسع البريطانى الفرار لها فى عصر الإمبراطورية ! .

★ ★ ★

لقد ظهر (سكوتى سميث) في مستعمرات أستراليا باحثًا عن الذهب .. بالطبع كان فاشلاً فشلا ذريعًا وإلا لما سمعنا عنه بعد ذلك إلا كمليونير ..

ثم ظهر كصائد جوائز فى نيويورك .. تدفع له الحكومة مالاً مقابل تخليصها من المجرمين .. وهذا تعريف قريب من مصطلح رجل الرمال ..

ثم ظهر فى مستعمرات الهند قائدًا لفرقة من الجنود .. هناك تورط فى خطأ تكتيكى أدى لوفاة الكثيرين من الرجال تحت إمرته ، وهكذا طردته المحاكم العسكرية من الجيش ..

ثم ظهر فى جنوب أفريقيا عام 1877 لينضم لقوات البوليس على الحدود ، ويشهد حرب (جايكا) ..

هذا المتمرد تورط فى كل ما يخالف القانون بشكل أو آخر .. صيد الأفيال .. تهريب السلاح .. قطع الطريق .. تجارة الماس

المسروق ـ لا تنس أننا فى جنوب أفريقيا ـ وسرقة الماشية والخيول ، لكنه كان يفر فى كل مرة ..

وكما الهاربين الخالدين فى كل مكـان ، يذكرنا الرجل بـ (عبد الله النديم) فى قدرته الهائلة على التنكر .. لقد خدع (النديم) كل شخص تقريبًا وكذا فعل (سكوتى سميث)...

إنه الرجل ذو الألف وجه فعلاً ..

كان (سميث) يسرق .. يسرق بلا توقـف .. لكن أحيانـًا كـان يتصرف مثل (روبين هود) الحقيقـى فيأخذ من الأغنياء ليعطى الفقراء .. وهذا ما جعل قصته ذات قبول عند الناس هنا .. بشكل ما بدا لهم بطلاً برغم أنه كان وغـدًا كبيرًا .. وكل الأوغـاد حياتهم مسلية كقصة تستمع لها ..

من ضمن الأسـاطير من حولـه أنـه جعل فلاحًا فقيرًا يسلمه للشرطة لينال المكافأة على رأسه .. بعد ما أخذ الفلاح المكافـأة ، فر (سميث) فجرًا كما هى العادة !

كان يجيد عدة لغات منها بالطبع لغات البوشمن والهولندية ..

قبض عليه عدة مرات ، ولكنه كان يفر فـى كل مـرة .. المرة الوحيدة التى قضى فيها عامًا كاملاً فـى السجن كـانت بعد قيامـه بسطو مسلح للحصول على الماس .. كان هذا كمينًا أعـده رجـال الشرطة البريطانيون له ...

يخرج من السجن ليعمل مرتزقًا .. هو الآن فى الخامسة والأربعين وقد بقيت 8 سـنوات على حـرب البوير الشهيرة بين بريطانيـا والهولنديين .. يبتـاع لنفسـه مزرعـة قرب (ويتدراى) وتدعى (ليتلاندشبان) .. (ويتدارى) ؟ إذن هو كان قريبًا جدًا من بلد (مارثا) ..

★ ★ ★

هنا يبدأ فصل جديد من حياة (سميث) ..

فصل مشين يندى له الجبين .. لكنه حقيقى ..

عندما زار د . (بورخارد) ـ من جنوب أفريقيا ـ لندن .. لاحظ أن عينات (البوشمن) نـادرة فـى كليـة الجراحين الملكيـة ، وقد تحمس الرجل ووعد بأن يمد الكلية بـالمزيد من هـذه الهياكل .. يبدو أن عادة الغربيين فى ذلك الزمن كانت (تقديم الوعود ممن لا يملك لمن لا يستحق) ..

هذا يذكرنـا بـ (سـارة) التى كـانت حسناء (الخوى خـوى) وعرضوها فى كل أوروبا تقريبًا حية وميتـة .. وهكذا تم تكليف الأخ المرتزق (سكوتى) بإحضـار هياكل عظمية للبوشمن .. على الفور جاء المغامر للطبيب بعشرة هياكل .. وزعم أن هؤلاء لصوص ماشية أغاروا عليه فأطلق عليهم الرصاص ودفنهم فى الكثبان الرملية ..

هكذا صار (سكوتى) يورد مئات الهياكل العظمية لمتاحف أوروبا كلها .. هذا مورد رزق طيب ، وإن كان الأرجح أنه كان يقتل البوشمن خصيصًا من أجل الحصول على هذه الهياكل .. الكل كان يعرف هذا فى الواقع ، لكن الضمير الغربى ذو تكنولوجيا عالية .. إنه مزود بمفتاح غلق وفتح ، وبهذا يمكنهم أن يعطلوه فى أية لحظة .. يغلقونه عندما يتعلق الأمر بالبوشمن ويفتحونه مع اليهود .. يغلقونه مع الفلسطينيين ويفتحونه مع (دارفور) .. هكذا .. كليك .. كلاك .. كليك .. كلاك ..

حياة (سكوتى) حافلة جديرة بالقراءة ، ويمكن أن تصنع منها هوليوود عدة أفلام سينمائية .. لكن لابد لكل إعصار من أن يستقر فى النهاية ..

كان سكوتى بطبيعة الحال يروق للنساء ويتصرف معهن كسيد مهذب ، وهى سمة عامة لدى نمط الخارجين على القانون هذا .. عام 1892 قابل فتاة أحلامه وتزوجها ..

هنا يهدأ تيار حياته .. إلى أن مات بالإنفلونزا عام 1919 .. وهى ميتة غريبة بالنسبة لمن عاش يغازل الموت فى كل لحظة من حياته .. وقد دفن فى (أبنجتون) .. نفس المطار الذى أقلعنا منه ..

* * *

كان (سكوتى سميث) عدو البوشمن ، وقد عاملهم كأنهم حيوانات برية ..

لكن القصة قد انتهت عام 1919 .. فماذا استجد ؟

لماذا عاد اسمه يتردد فى هذه الأصقاع ؟

* * *

15ـ الرحيـــل ..

أنهت (مارثا) قصتها فظللنا ننظر لها منتظرين أن تكمل ..

ـ « وبعد ؟ »

ـ « لاشىء .. هذه هى القصة كلها ! »

قلت فى غيظ :

ـ « تحكين عن مرتزق مات عام 1919 .. وتقولين إنه هو الذى جرك إلى الصحراء .. قصة منطقية فعلاً .. »

نظرتْ إلى البوشمن الواقف على ساق واحدة قربها وقالت وهى ترتجف :

ـ « منذ زمن يستمطر البوشمن اللعنات على روح ذلك الرجل الأبيض .. منذ فترة بدأت حالات وفيات تظهر .. إنهم يختفون فى الليل .. ومن يختفوا يجدوهم بعد ذلك موتى .. ليس هذا فحسب .. إن عظامهم تكون عارية كأنما هناك من يعد هياكلهم لمتحف جمعية الجراحين الملكية .. إنهم يعتقدون أن روح الكابتن سميث عادت للانتقام منهم بعد كل هذه الأعوام .. هذا الصياد يجوب الرمال ليلاً بحثًا عن أشخاص يجردهم من اللحم .. هذا يفسر لك ما حدث ليلة أمس .. لقد اختفى أحدهم .. ذهب ليقضى حاجته ، ثم دوت طلقة رصاص .. »

صاح (فاسيلى) :

ـ « طلقة رصاص ؟ لماذا لم نسمعها ؟ »

قلت أنا فى برود :

ـ « لأننا كنا شبه موتى .. الإنهاك جعلنا غير قادرين على سماع انفجار نووى .. أكملى .. »

قالت مواصلة قصتها :

ـ « ثم اختفى .. أخوه لم يجد له أثرًا فملأ الدنيا صراخًا وأيقظ النساء .. يقولون إننا سنجد عظامه قريبًا من هنا .. »

كنت أعرف أن موضوع تجريد العظام من اللحم حقيقى .. نحن كنا شهودًا على ذلك ..

إنها لقصة مخيفة .. والأسوأ أنك لا تستطيع تكذيبها .. لقد رأينا دلائل شبه يقينية على كونها حقيقية ..

الصياد الذى عاد شبحه ليمارس هوايته القديمة ..

قصة تبعث القشعريرة فى النفس ..

قالت (مارثا) وهى تشير إلى الأسرة التى تتحرك حولها :

ـ « سوف يغادرون هذا المعسكر .. البوشمن لا يبقون لحظة واحدة فى مكان مات فيه أحدهم .. وهم لا يعبرون أى موضع دفن

فيه واحد منهم .. لو أرغموا على العبور فإن تقاليدهم تقضى بأن يرموا حصاة على القبر ، مع ترديد بعض التعاويذ التى تقيهم شر الميت .. »

قلت لها :

ـ « إذن هم من عبدة أرواح الموتى ؟ »

ـ « إلى حد ما .. نعم .. ككل البدائيين فى الواقع .. لكنهم كذلك يؤمنون بوجود إله قوى خلق نفسه أولاً ثم خلق الأرض والماء والصحراء .. إنه خيّر على الأرجح لكن غضبته مخيفة .. يطلقون عليه اسم (هارا) .. »

طرقعت بلسانها على سقف فمها قبل أن تنطق الاسم .. أى أنه يُكتب هكذا Hara !.. لو لم تصدر الطرقعة يسخر منك القوم فى جنوب أفريقيا ، كما نسخر نحن من (الخواجة) الذى يقول (هبيبى) و(ممنوء التدهين) ..

أردفت (مارثا) :

ـ « عندهم كذلك إله أصغر مسئول عن الشر والسحر الأسود .. »

ثنائية تتكرر كثيرًا ، وهى تذكرك بثنائية (أوزيريس) و(ست) عند الفراعنة .. على كل حال تتشابه معتقدات قبائل أفريقيا البدائية .. فقط تتباين الأسماء ..

بعد صمت سألتنى (مارثا) :

ـ « ماذا عن (فولفى) ؟ الطيار .. »

قلت دون أن أنظر لها :

ـ « تركناه فى الطائرة للحظات اختفى بعدها .. أعتقد أننا رأينا جثته وإن لم أكن متأكدًا من ذلك .. »

شهقت .. وقالت :

ـ « هل قتـ ... ؟ »

ـ « أعتقد هذا .. لقد قرر الكابتن سميث أن يغير نوع الهياكل العظمية .. »

لا جدوى من أن أحكى لها مشهد المسخ الذى رأيناه .. لن تصدق حرفًا ..

كنت أفكر فى هذا بينما البوشمن يستعدون للرحيل بمتاعهم القليل .. الكوخ عبارة عن ألياف يتم فكها فى دقائق .. لا يوجد شىء معدنى إلا ما ندر ..

خلال ربع ساعة لم يبدُ أن هذا الموضع كان مقر إقامة أسرة ..

* * *

من الغريب أنهم لم يحاولوا الخلاص منا ..

حسب فهمى لطريقة تفكير البدائيين فنحن جلبنا الشؤم ، أو نحن الشؤم ذاته ، أو نحن بيض من نفس جنس الكابتن (سميث) ..

لكنهم لم يحاولوا الخلاص منا .. فقط عاملونا بلا مبالاة تامة كأننا غير موجودين .. مشوا فمشينا وراءهم .. هكذا ...

نحن نقطع الكثبان الحمراء التى تقطعها دروب بيضاء ، تحت سماء زرقاء ساحرة ..

للمرة الأولى أرى الحياة الثرية فى كالاهارى .. يبدو أن قدور الملح تلك تجذب الحيوانات بشكل غير طبيعى ..

وجود هذه الحيوانات علامة مهمة على وجود الصيف .. بعد انتهائه ترحل إلى الشمال ..

قطعان من الحيوانات التى لا أعرف الفارق بينها .. كلها بالنسبة لى ظباء أو غزلان أو وعول .. أى كائن وجل يمشى على أربع وله قرنان عملاقان ، ويأكل أوراق الخس من يدك فى حديقة حيوانات الجيزة إذا أعطيت الحارس نصف جنيه من أجل (الدخان) ..
لكنهم يتحدثون عن Gemsbok و Springbok و Eland .. فيما بعد عرفت أن هذه الحيوانات هى الظبى الشبيه بالثور .. غزال أفريقيا الجنوبية .. الظبى الأفريقى السريع .. الظبى الأفريقى

البنى .. الظبى الأفريقى طويل الذيل قصير العرف .. الـ Eland يشكل مع النعامة الفريستين المفضلتين لدى (البوشمن) ..

طبعًا رأيت الكثير من حبيبى الفضولى اللعوب (الميركات) .. رأيت أسرة من النعام تفر مذعورة .. لابد أنها صارت تعرف البوشمن عندما تسمعهم من بعيد ..

لكن لم يبدُ أن البوشمن مهتمون بهذه الثروة الغذائية ، وقالت لى (مارثا) مفسرة :

ـ « إنها حالة حداد .. لن يقوموا بالصيد إلا عندما يبلغون بيتهم الجديد .. »

من حين لآخر يتوقف الرجل (مطارد النحل) ، ويتأمل المكان حوله فى خبرة ، ثم يصدر صيحة مميزة ويركع على ركبتيه ويخرج تلك القصبة الطويلة .. يغرسها فى الرمال ويدفع .. ويدفع ..

يدنو منه أحد الصبية حاملاً ثلاث بيضات نعام مفرغة .. هكذا يمتص البوشمن الماء الجوفى فى الماصة ـ كأنه فى مختبر الكيمياء ـ ثم يفرغها فى البيضة تلو الأخرى ، ويعلق الصبى هذا البيض حول خصره ..

برغم الحداد ، فإن البوشمن لا يضيع فرصة للحصول على هذا السائل الثمين ..

★ ★ ★

كانت القصة قد اكتملت تقريبًا فى ذهنى ..

لكن يبقى السؤال المهم .. كيف اختفت (مارثا) من الطائرة بينما أبوابها مغلقة والرمال تسدها من الخارج ؟ كانت هناك فترة فقدنا فيها الوعى ، وكان أى واحد قادرًا على اختطافها ، لكن كيف دخل إلى الطائرة وكيف خرج منها ؟

وهل الذى اختطفها كان ينتظر لحظة سقوط الطائرة فى المكان والزمان الذى اختاره كى يفعل ذلك ؟

يا له من حظ !

★ ★ ★

16 ـ هل أنت ؟

و(مارثا) تواصل محاضرتها التثقيفية عن هذه القبائل بينما نحن نمشى فى الصحراء .. (فاسيلى) يطوق كتف (سيمونيتا) ويتهامسان بينما يسبقاننا ، على حين أمشى جوار (مارثا) ..

لا نخشى أن نضيع ما دمنا نرى البوشمن .. لا أحد يضيع فى الصحراء وهو يمشى مع البوشمن ..

تقول لى :

ـ « عامة نصنف سكان هذه البلاد البدائيين تحت اسم كبير هو (خوى ـ سان) .. الخوى خوى هم ... »

قاطعتها فى نفاد صبر :

ـ « صدقينى إننى أعرفهم .. رجال من رجال .. إنهم (الهوتنتوت) .. »

ـ « القسم الثانى هو (السان) .. هؤلاء هم البوشمن .. وهم يكرهون اسم (سان) كثيرًا لأنه نوع من السبة المهينة التى أطلقها عليهم (الخوى خوى) .. معنى الكلمة قريب من معنى (الوافدون) أو (غير المنتمين) .. اسم البوشمن Bushmen مأخوذ من الإنجليزية غالبًا ومعناه كما تعرف هو (رجال الأحراش) .. هم يطلقون

على أنفسهم اسم (ساسى) .. لم يغيروا نمط حياتهم على مدى 22 ألف عام .. على كل حال لم يكن العالم يعرف عنهم الكثير حتى عام 1950 عندما كتب عنهم (لورانس فان در بوست) كتابًا اسمه (مملكة كالهارى المفقودة)... كما ترى هم صيادون .. لا يوجد نشاط آخر .. حياتهم قاسية جدًا .. لدرجة أن الأم قد تنجب طفلاً فى فترات الجفاف الشديد .. من ثم تقتله على الفور كى توفر عليه لحظات عصيبة .. »

ارتجفت للفكرة .. إذن هم (يقتلون أولادهم خشية إملاق) بالمعنى الحرفى ..

كما نمشى وسط الصحراء القاحلة .. لا شىء يمنعنا من أن نضل الطريق ونموت سوى الظهر العارى لمطارد النحل الذى يتقدمنا بمائتى متر ..

الرمال الحمراء فى كل مكان .. قدور الملح .. (كالاهارى) العظمى المخيفة .. لكنى قدرت أن الخضرة تتزايد برغم كل شىء ..

برغم كل شىء نرى حيوانات ..

برغم كل شىء نرى حياة وطيورًا ..

معنى هذا أننا نتجه إلى الشمال حيث تظل (كالاهارى) هى (كالاهارى) ، لكنها أكثر لطفًا وتحضرًا ..

قلت لـ (مارثا) :

ـ « ألم تسأليهم عن سبيل الخروج من هنا ؟ كيف نصل إلى (أبنجتون) أو أى مكان فيه مدنية ؟ أين الرجل الأبيض أو الأفارقة المتحضرون ؟ »

قالت فى حرج :

ـ « كان هذا أول شىء سألته عندما ثبت لوعيى .. لكنهم يرفضون أية إشارة للموضوع .. »

جميل .. معنى هذا أن علينا أن نلتصق بهم وننتظر الحظ الحسن ..

لقد صارت العودة إلى الطائرة مستحيلة ..

★ ★ ★

علمت أن طائرة (فان ثورن) هبطت فى الممر الصغير الوعر بالمطار .. ومنها ترجل الطيار الهولندى قوى البنيان بسترته الجلدية ونزع قفازاته ..

كان رفاقه يقفون فى صف واحد يرمقونه متسائلين ..

مط شفته السفلى وضغط على السيجار بأسنانه بما معناه أنه لا شىء يقال ..

دخل إلى غرفة المراقبة حيث (جورج ماوويكى) عامل الاتصالات الأفريقى .. نظر له (جورج) نظرة مماثلة فهز رأسه .. تناول زجاجة صغيرة من الخزانة وصب لنفسه بعض الشراب وقال :

ـ « لم نجدهم .. مسحت منطقة لا بأس بها بلا جدوى .. »

لم يكن يتكلم عن الطائرة .. كان يتكلم عن راكبيها .. لقد وجدوا الطائرة منذ يومين ، وبالطبع كان الهبوط مستحيلاً لذا أبلغوا حرس الصحراء .. هؤلاء يملكون طائرات الهليوكوبتر التى نزلت فى منطقة الحطام .. كان خاليًا .. لم توجد جثث .. هذا مهم .

من الواضح تمامًا أن الضائعين فتحوا باب الطائرة وغادروها ..

كان مع فريق البحث قصاص أثر من البوشمن ، فليس كل البوشمن عراة بدائيين .. منهم من يلبس القميص والبنطال ويتحدث الإنجليزية والهولندية كأهلها ..

لكن يبدو أن هذا البوشمن فقد حاسة اقتفاء الأثر الأسطورية عندما غطاها صدأ الحضارة .. هكذا فشل تمامًا فى العثور على أثر المفقودين ..

ومنذ ذلك الحين ينطلق (فان ثورن) بطائرته عدة مرات فى اليوم ليمسح الصحراء ، ثم يعود إلى المطار ..

قال (ثورن) فى غل :

ـ « لماذا لا ينتظرون فى مكانهم حتى نجدهم ؟ كل الضائعين يتصرفون بذات الحماقة .. »

قال (جورج) فى حكمة :

ـ « لأنهم لا يثقون فى الحظ الحسن .. لذا يتصرفون كالأطفال .. كم طفل سيبقى حيث هو لو فقدته أمه فى السوق ! »

جرع (ثورن) ما فى يده مرة واحدة ، وتقلص وجهه وقال :

ـ « المشكلة أنهم فى ألعن مكان من كالاهارى .. المكان الذى يجوبه شبح (سكوتى سميث) .. لقد سمعت المزيد من التقارير .. البوشمن يتساقطون كالحملان .. »

ـ « هذا هراء .. هؤلاء ماتوا لأسباب طبيعية .. »

ـ « قل هذا لأقاربهم .. إن التقارير تتوالى وكلها مخيف .. »

ثم نظر فى ساعته وقال وهو ينهض :

ـ « سأبحث عما إذا كانوا تركوا لى شيئًا من الطعام فى الكافتيريا .. »

* * *

عند العصر بدأ الصيد ..

كانت تلك النعامة تعدو .. ومن عدوها السريع الذى لا يصدق عرفنا أنها ذكر .. هذا هو الظليم الذى شبه به العرب العدّاء السريع : « يركض ركض الظليم .. »

وراء النعامة يركض كلب مطارد النحل يحاول اللحاق بها بلا جدوى .. مستحيل أن تلحق بذكر نعامة مهما حاولت ، لهذا وقف مطارد النحل على التبة الرملية يراقب الموقف ، ثم أخرج أداته التى تشبه البوميرانج وطوحها فى الهواء بخبرة .. طارت ولفت حول نفسها ثم ارتطمت برأس النعامة فى موضع محسوب بعناية .. هكذا سقط الطائر الضخم أرضًا ..

وعلى الفور انطلق البوشمن نحوها ، ليربط قدميها بالحبال ثم يقتلها حيث هى ..

سوف يكون عشاؤهم حافلاً هذه الليلة .. للأسف أنا لن أستطيع تذوقها لأسباب دينية ، خاصة وأننى لم أبلغ درجة الجوع التى تبيح لى هذا .. إن الفاكهة والمعاجين الغريبة التى لديهم تفى بالغرض مع معدتى نوعًا ..

بالإضافة لهذا لم أتخل عن الشعور بأن حظنا حسن وأن النجاة قريبة ..

أية مقارنة بين وضعنا ونحن بلا هدى فى الصحراء ، ووضعنا الحالى تبعث على التفاؤل ..

نحن أحياء .. ولدينا مورد من الماء والطعام ، وفى حراسة أسرة من البوشمن الذين هم سادة الصحراء فعلاً .. مثلما تجد نفسك مع البدو فى صحارى شمال أفريقيا ..

هناك جوار الكوخ الجديد جلست (سيمونيتا) و(مارثا) والنساء يتعاونّ فى عمل نسائى ما .. نوع من جدل الألياف ، وقد بدا لى أن حاجز اللغة قد تم قهره فى وجود مترجمة ممتازة مثل (مارثا) ..

فجأة سمعنا صوت محرك ..

وقفنا ورحنا نركض فى الصحراء غير مبالين بالحفر التى سقطنا فيها عدة مرات ..

كانت طائرة ذات محرك واحد تشبه تلك التى جاءت بنا .. وكانت تطير على ارتفاع لا بأس به ..

شىء فى أعماقى قال إنها تبحث عنا ..

لم ينسونا بعد ولم يقنطوا ..

هكذا رحنا نصيح فى بلاهة ونتواثب فى الهواء ..

لو نظر هذا الغبى إلى أسفل ودقق النظر ، لرآنا .. كل ما يفعله هو الانطلاق كأنه فى تدريب ..

فى النهاية حدث ما توقعته وابتعدت الطائرة ...

قال (فاسيلى) لاهثًا :

ـ « سيناريو صوت المحرك .. الصراخ .. الأمل .. ثم أفول الأمل .. لقد صار هذا مملاً .. »

قالت (سيمونيتا) :

ـ « ليست غلطته .. هذه غلطتنا نحن .. يجب أن نشعل نارًا عملاقة .. نرسل إشارات بالمرآة .. أى شىء من هذا القبيل .. »

نعم .. لكن من أين نأتى بمرآة ؟

نار عملاقة ؟ ربما ..

رحنا نجمع الأخشاب ونصنع كومة هائلة .. سوف يحتاج هذا إلى جهد لا يوصف .. يجب الإبقاء عليها حية .. يذكرنى الأمر بكاهنات معبد (دلفى) اللاتى كانت مهمتهن إبقاء النار حية فى المذبح ؛ ليأخذ الناس ما يحتاجون منها إلى بيوتهم .. لو انطفأت النار كانت الكاهنة تحرق بها ، ولا تسألنى عن مصدر النار التى كانوا يحرقون بها هذه الكاهنة ..

كنا نجمع الأخشاب عندما ظهرت القامة القصيرة العارية لمطارد النحل ..

كان يتكلم بعصبية وغضب ويشير للنار ولنا ..

كانت الرسالة سهلة واضحة على كل حال ، وقد تأكدت عندما قالت لى (مارثا) :

ـ « يقول إن هذه النار العالية خطر .. سوف تجتذب الكابتن سميث هنا .. هو لا يريد مشاكل أكثر .. »

بدا واضحًا أن غضبة الرجل صادقة عاتية ، ولما كان هو أملنا الوحيد ولا يمكن أن نتخلى عنه ، قررنا إلغاء هذا المشروع ..

* * *

فى المساء اشتعلت النار أمام الكوخ .. نار صغيرة لا تستفز الكابتن ..

نامت النسوة والأطفال فى الكوخ ووقف مطارد النحل وقفته المعتادة للحراسة ..

هنا دنا منى (فاسيلى) وزحف على ركبتيه حتى صار ملاصقًا لى وهمس :

ـ « طبعًا سوف يختفى أحدهم هذه الليلة ! »

نظرت له فى عدم فهم ، وقلت ما معناه (فأل الله ولا فألك) .. لكنه عاد يقول بإصرار :

ـ « ألم تفهم بعد أن الخطر ليس حولنا ؟ الخطر معنا ! »

قلت له فى ضيق إننى أكره الكلام بالألغاز .. فقال :

ـ « أمس عندما اختفى أخو هذا الرجل .. خرجنا من الكوخ وكان هناك عدد من النساء والأطفال .. عندما كنت أوقظك اصطدمت بالموضع الذى كانت فيه (مارثا) نائمة .. كان خاليًا أو هذا ما حسبته فى الظلام .. »

ـ « ماذا تريد قوله ؟ »

ـ « هل تجد أى تفسير منطقى لاختفائها من الطائرة ؟ الأمر لا يحتاج إلى ذكاء .. طائرة مغمورة بالرمال لا يوجد فيها إلا باب واحد .. فتحناه أنا وأنت .. برغم هذا لم نجدها فى الطائرة وعلينا أن نصدق أنها اختفت فى الثوانى التى فقدنا فيها الوعى .. اختفت وأعادت الرمال لتغطى الطائرة .. »

عدت أقول فى عصبية متزايدة :

ـ « ليتك تكف عن مخاطبة ذكائى الذى لا وجود له .. اعتبر أنك تكلم حمارًا .. »

قال غير مبال بغضبى :

ـ « فتاة مختصة بالعقارب .. لا نعرف من أين جاءت .. تذكر أنها من جاء بنا إلى هذا المكان .. وهى الآن معنا ونحن تحت رحمتها بالكامل ... »

حككت عينى وتذكرت الكابوس الذى رأيته ليلاً ..

عدت أسأله :

ـ « ماذا تريد قوله ؟ »

ـ « ليتنى أعرف .. كل ما أدركه هو أننا واقعون فى قبضة ساحرة شريرة تعبث بالعقارب وتقتل البوشمن .. ساحرة جاءت من نفس عالم (سكوتى سميث) .. باختصار : أعتقد أن (مارثا) هى ذاتها (سكوتى سميث) ! »

كان اللهب يتألق على وجهه الروسى الصلب وعلى لحيته الشقراء .. وعلى عدستى نظارته رأيت نارين تتوهَّجان ..

هل البرد يزداد أم أنه التوجُس من المجهول ، هو الذى يبعث هذه القشعريرة فى عروقى ؟

★ ★ ★

(نهاية الجزء الأول)

روايات مصرية للجيب

سافارى

مغامرات طبيب شاب يجاهد
لكى يظل حيًا ولكى يظل طبيبًا



رَجُل الرِّمال

لهذا تجدنا الآن جالسين على الرمال فى الظلام .. ذلك المشهد الذى بدأت به القصة ..

ظلام دامس .. لا يوجد معنا مصدر للهب .. غير مهيئين لهذه التجربة على الإطلاق ..

كنا جالسين متلاصقى الظهور عندما رأينا هذا الشخص .. هذا الشىء يدنو منا ..

وبرغم كبرياء الرجولة فإننا جميعًا صرخنا .. رجلان وامرأة يصرخون كالأطفال ....

د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم

الأخير

الثمن فى مصر 300
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

